من كنوز الدراسات الموضوعية

دستور العلاقة الزوجية

في ضوء

وصية أمامة ابنة الحارث

تأليف

محمد صادق عبده عوض

قدم له

د. الطاهر أحمد مكي

اعتنى به

بهاء الدين عقيل

دار طيبة

٢٥٤١١

٦٧٤

دستور العلاقة الزوجية

في ضوء

وصية أمامة بنت الحارث

ح دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عوض / محمد صادق

دستور العلاقة الزوجية في ضوء وصية أمامة بنت الحارث / محمد صادق عوض - الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٢٨ص ؛ ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٠ - ٤٨ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الزواج ٢ - الحقوق الزوجية أ- العنوان

ديوي: ٢٥٤,١ ٤٦٦١ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٤٦٦١ / ١٤٣٠

ردمك: ٠ - ٤٨ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي

ش. السويدي العام - غرب النفق - ص. ب ٧٦١٢

الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٢٧٣٧ (٦ خطوط) فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

من كنوز الدراسات الموضوعية

دستور العلاقة الزوجية

في ضوء

وصية أمامة بنت الحارث

تأليف

محمد صادق عبده عوض

قدم له

د. الطاهر أحمد مكي

اعتنى به

بهاء الدين عقيل

دار طيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أمي .. وفاءً وعرفانًا .

إلى كل فتاة ترنو نحو آفاق السعادة أملاً.

إلى كل من عثرت مرة ثم تنهض لتعيد الكرة بزواج تغمره النجاحات المديدة.

إلى التي هي في علم الله وفية .. طيعة .. علّها تعيد البسمة الغاربة.

إلى كل والد يسمو بابنته مربيًا نحو مدارج العلا .

وإلى كل من يريد مجتمعًا حرًا عزيزًا ...

محمد صادق

تقديم أ.د. الطاهر مكي

هذه دراسة تتسم بـالعمق والجـدة في آن؛ بـالعمق لأنهـا تتخـذ مـن تراثنـا مرجعًا، وبالجدة لأنهـا لا تغفـل تطـور الحيـاة، ومـا جـد فيهـا مـن مـشكلات وآليات.

والحق أن ما خلفه أجدادنا من حكم وتجارب، ووصايا ونصائح، يمكن أن يكون هاديًا إلى غد أعظم، وأن نستردَّ في ضوئه أمجادنا الغابرة، وأن يكون نقطـة الانطلاق لبعث جـديد بأمـة يقـول عنهـا كتـاب الله العزيـز: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقد وقفت الدراسة وقفة مستأنية عند «**وصـية أمامـة بنـت الحارث**»؛ أورد نصها كاملاً، ومضى ينير أفكارها، ويلقي الضوء عـلى خفاياهـا بثقافته الواسعة، التـي اسـتمدها مـن قراءاتـه المعـاصرة، وتجاربـه المتنوعـة، في أسلوب متميـز، وعبـارة محكمـة واضـحة، فجمعـت بـين «المتعـة والفائـدة»، ولعمري إن ذلك جماع الأدب الخالد.

هل يعرف أحد دستورًا يرسي علائق الحياة الزوجية أدق من هذا الدستور؟ أزعـم أنني لم أقرأ مثلها فيما قرأت، وهو ليس بالقليل، وفي أكثر مـن لغـة، ومـن هنا كانت البيوتات الإسلامية الأولى نموذجًا رائعًـا لـلأسرة المتماسـكة، وهـي اللبنة الأولى للأوطان، تعظم وتصمد بقدر تماسكها، ليس عندنا فحسب، وإنما في كل الدنيا.

ويمكن القول أيضًا: إن الأمم تنهار في غيبتهـا، ويـصيبها الـوهن، وتكـون مطمعًا للأعداء، ولعل هذا ما يفـسر لنـا سر إصرار أعـدائنا عـلى هـدم الأسرة

الإسلامية، وإشاعة الفرقة بين أبنائها، وتسليط الخلاف والانحلال والتراخي في المجتمع الإسلامي.

وقد اتبع الباحث في دراسته المنهج العلمي المعاصر، فلم يقبلها منذ البدء قضية مسلمة، وإنما بدأ أولاً بتوثيق النص في مصادره المختلفة، والموازنة بين الروايات المتعددة للوصول إلى النص الذي هو أقرب إلى الحقيقة، حتى إذا أصبح نص الوصية أمرًا مسلمًا به، لا يتطرق الشك إلى صدقه، مضى يبني أبعاده التاريخية والسياسية، وبين الحاضر والماضي علاقة جدلية، تستطيع أن تفسر أحدهما في ضوء الآخر: زواج الملك، أو الرئيس- حيث تكثر القبائل وتقوى- بأكثر من زوجة، في أكثر من قبيلة؛ يوطد بهم عرشه، ويجعل منهم رحِمَهُ، وهو أمر يجري حتى يومنا هذا في الجزيرة العربية، على النحو الذي كان يجري عليه أيام ملوك كندة، قبل ألف ونصف ألف من الأعوام، وهو أمر كان متبعًا حتى عهد قريب – وإن سلك منحى آخر- بين العائلات المالكة في أوربا نفسها.

أدت به الدراسة إلى أن يتناول في أناة ودقة جانبًا غامضًا من جوانب تاريخ الجزيرة العربية، وأعنى به قيام مملكة كندة، وهي من أهم الإمارات التي قامت في وسط الجزيرة العربية، ولعبت دورًا بالغ الأهمية تاريخيًا وأدبيًا، رغم الغموض وتناقض الروايات التي أحاطت بنشأتها وتطورها، وأيامها وملوكها، واحتفائهم.

لقد جلا الباحث تاريخ كندة لأن العريس أحد ملوكها؛ أبان مكانته وصولته وأخلاقه، ثم انثنى إلى العروس يبين مكانة أهلها بين العرب،

ومكانتها بين قومها، وهم بنو ذهل بن شيبان، متحدثًا عن مكانتهم وأيامهم بالمصطلح العربي العريق، أعني حروبهم مع غيرهم من بقية القبائل العربية، وما كان لهم من النصرة أو عليهم من الهزيمة.

ويحلل الباحث الوصية نصًا، بمنهج نقدي حديث؛ فيقف عند أفكارها والخصائص النفسية التي تتجلى من بينها في الحوار بين الأم والابنة. ولكن النص الأدبي ليس أفكارًا فحسب، وإنما هو أيضًا تعبير وبناء وشكل، وهو مرسل ومتلق، وقد وقف الباحث عند هذه الجوانب كلها، في تمكن ووعي بآلياته، فللألفاظ المفردة إيقاعها، وللجمل كاملة رنينها، والتوافق الموسيقي في كل هذا يحدث بلاغة تجد طريقها إلى الوجدان فتؤثر فيه حالاً دون مرور بالعقل، الذي يتسم بالبرود والبطء والمراجعة، وهي أشياء قد لا يريدها المرسل، لأنه يريد أن يبلغ غايته سريعًا، ومن هنا اتخذ من الأدب وسيلة، ولا تتأتى ثماره إلا إذا استوفيت مطالبه لغة وبناء وموسيقا.

إننا بحاجة ماسة إلى بعث تراثنا في وصاياه وأحداثه وخطبه على هذا النحو الجميل المفيد، وقد أمضيت مع هذه الدراسة لحظات بالغة المتعة والفائدة، بين عوائد العرب الاجتماعية عامة، وما اتصل منها بالحب والزواج ودواعيه ومظاهره خاصة؛ دراسة ذات نهج علمي جيدة التوثيق والترتيب، في أسلوب بالغ السلامة والروعة والجمال. ومثل هذه الدراسة فيما أرى خير ما يهدي إلى شبابنا، والفتيات خاصة، وتلميذات المدارس على نحو أخص؛ وذلك فيما يسمى «قراءة الكتاب الواحد» بدل الغثاء المصطنع الذي يؤلف بقصد المكافأة؛

فهو يفتقد الدافع الأدبي وتنقصه الفكرة المقنعة، واللغة الصحيحة، والأسلوب الجذاب، وكل هذه المعاني الجميلة تتوفر في هذه الدراسة الرائعة.

هل من يسمع؟

أعني...!

الطاهر أحمد مكي

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن منهاجًا ودستورًا، وجعله للعالمين نجاة ونورًا، والصلاة والسلام على النبي الرحمة، الذي أرسِل إلى كلّ الأمم والممالك، فسعد من اتبعه ومن خالفه فهو هالك، و على آله و صحبه الأطهار، وأتباعه الأبرار.

و بعد...

«فلكل أمة من الأمم إطارها المرجعي، و ثقافتها الخاصّة، ويتكوّن من خلالها مزاج نفسي وعقلي يصبح على مدار الأيام إحدى لازماتها، وهي من خلال ذلك كلّه تتعامل مع الأفكار الوافدة أو الأفكار التي تتولّد في محيطها نتيجة الحركة العقلية و الثقافية و الاجتماعية»[١].

«ويستطيع ابن اللغة أن يتعرّف إلى عقلية أسلافه ونفسياتهم، كما يستطيع بمثل هذه الدراسة أن يتعرّف إلى عقلية الشعوب الأخرى بدراسة لغاتهم دراسة تحليلية تعتمد على الخصوص على مفاهيم الألفاظ، بالاستعانة بما يقدّمه علم الدلالة من قوانين وما يفتح من آفاق»[٢].

«والعقول الجبّارة حقًا هي التي تكافح من أجل دمج معطيات التراث في مركب كبير شامل هو الحياة الحضارية النامية المتطوّرة وفق الأصول الربانية الهادية»[٣].

«ونحن بصدد وصية تعَدّ من أفضل الوصايا وأكملها في موضوعها،

---

(١) التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص ١٣٧.

(٢) فقه اللغة و خصائص العربية دراسة تحليلية، د. محمّد المبارك، ص ١٦٢ .

(٣) تجديد الوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص ١٥٨.

وخصوصًا أنها صدرت من امرأة ذات مكانة وشرف، وقد نعمت بحظ وافر من الحياة، وكذلك الزوج الذي زُفَّت له الفتاة الموصى لها؛ فهو من ملوك كندة»[(١)].

وهذه الوصية تمثّل تحفة أثرية فكرية يجب على الأجيال تدارسها والإمعان بدقة والتوغّل في مراميها، وليس وقوفًا دلاليًا عابرًا، فإن السطحية في تناول التراث وتهميش أي جزئية يعدّ هدمًا لمجد أمة اتصل حاضرها بماضيها، وبهما تبني مستقبلها رغم الأعاصير التي تريد اقتلاع جذورها، ولكن هيهات.

والملاحظ أن الكثيرين يتغنّون بما تبقى من حضارات قديمة زالت، وما بقيت لها من باقية إلا تمثال هنا أو رسم هناك، ومع عدم الازدراء لأي قيمة علمية تاريخية فإنه من باب الإنصاف ألّا ننحاز كلية لشيء ونترك أشياء.

فاللغة العربية في حقبتها الجاهلية تمثل نوعًا فذًّا خالدًا وكمًّا ضخمًا هائلًا ما زال بحاجة لمزيد دراسة وإدراك. «إن الألفاظ لا تعيش منعزلة، بل في متون النصوص مجتمعة مركبة مع غيرها من الألفاظ»[(٢)].

لأن الكلمات التي نستعملها اليوم لها تاريخ سابق وحياة طويلة، وقد يكون معناها الحالي مغايرًا لمعانيها القديمة، ولذلك يجب دراسة الألفاظ دراسة تاريخية تطورية عبر العصور»[(٣)].

فالنصوص التراثية هي نتاج يشهد بروعة بناء هذه اللغة، وهي ميدان

---

(١) الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح، ص ٣٨.

(٢) فقه اللغة و خصائص العربية – دراسة تحليلية، د. محمد مبارك، ص ١٦٥ بتصرف.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٦٥.

الإعجاز و مجاله، فمن العدل عدم حصر سعة اللغة في زوايا ضيقة يضل بها الباحثون في متاهات الظنون؛ فالتراث أصبح مهملًا عند الكثيرين، ونظم التعليم تساعد على نبذه.«وانحط مستوى التكوين العقلي للطالب في جميع المستويات والمناهج، يقول محمد إقبال: إن نظام التعليم الحديث قد فشل في أداء رسالته، وأخفق في تكوين جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته....وبالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية، يعرف كل شئ إلا نفسه»[1].

وأصبحت أمتنا أمة تَلَقٍّ، فهي تتلقَّى ما يصنعه أعداؤها لها من أفكار واتجاهات تبني شخصيتها، بلا تحليل ولا تمحيص. فالصور الذهنية التي تتكون عن العالم الخارجي لدى الإنسان ما هي إلا تمثيل مبسط لبيئة غير حقيقية، وينتج هذا التمثيل بسبب ضيق الزمن الذي يمتلكه الإنسان في هذه الحياة من جهة، ومحدودية الفرصة المتاحة له للتعرف الشخصي المباشر على حقائق العالم من حوله من جهة أخرى»[2]. و«سيكون من الخطأ الاعتقاد بارتقاء الوعي إذا هو أسلم نفسه للقوى الغاشمة التي تصوغ الرؤى الثقافية لمعظم سكان الأرض»[3]. فنحن علينا أن نتعامل مع تراثنا وفق واقعنا وعلى هدى من ثوابتنا، فأصولنا غير قابلة للذوبان، وعلينا الحفاظ على ذواتنا بالانطلاق الرشيد وفق هذه المعطيات.

ونحن أمام أيدينا كنوز ما أزيل ركام الإهمال عنها حتى الآن. وهذا الذي

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص ١٥٩و١٦٠.

(٢) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. عبد القادر طاش، ص ٢٤.

(٣) تجديد الوعي، ص ٢٧٢.

دفعني إلى الوقوف مليًا أمام هذه الوصية، وتقليب نظرات الفكر في أحوال إلقائها وزمانها والأشخاص المتعلقة بهم، ثمَّ التأمُّل روِّية في مفرداتها ودلالاتها وتراكيبها وخصائصها، ثمَّ ربط كل ذلك بكيفية الاستفادة منها في واقعنا الذي تحاول قوى الشر العالمية رسمه وصبغه بصبغة تلائم واقعها ومصالحها ونظرتها المستقبلية ذات البعد المهيمن على العالم.

«إن دخول الأمة في مرحلة التراجع الحضاري سوف يعني الكف عن تجديد الهوية وبعثها وإعادة إنتاجها» ولقد دفعتني إلى البحث الرغبة في مدّ الجسور بين حاضرنا -رغم ما فيه من تردٍّ وتعثُّر- وبين ماضينا وما فيه من أصالة وركائز جاء الإسلام فوجّهها وبنى البناء من جديد، فأثْرَت البشرية وقامت حضارة لم ير التاريخ مثلها.« ففي التراث أصول هادية ومستندات أدبية لجهودنا البنائية، لكن ليس فيه حلول جاهزة لمشكلاتنا المعاصرة »[1]؛ «فالثقافة لا تضمُّ في مفهومها الأفكار فحسب، وإنما تضم أشياء أعمَّ من ذلك كثيرًا تخصُّ أسلوب الحياة في مجتمع معيَّن من ناحية، كما تخصُّ السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى»[2].

وهذه الوصية توحي بشيء كان في الجاهلية؛ فبرغم تخبط الجاهلية وما اكتنفها من ظلام دامس فإنها كانت تحمل في ثنايا هذه الحلكة شيئًا بقي من أنوار الفطرة، وهذا ما حاولت استكشافه وإثباته.

وهي وصية لا تعكس بُعدًا عامًا استغرق كلَّ جوانب الحياة الاجتماعية عند

---

(١) تجديد الوعي، ص ١٥٦.

(٢) مشكلات الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة عمر مسقاوي، ص ١١ .

العرب آنذاك، بل تمثّل لقطة من اللقطات في لوحة المتناقضات؛ فهي لقطة زاهية مبهرة تلتحم بها لقطات بائسة من: وأد البنات، وعهر، وقتل، وإضاعة لحقوق الإنسان، وغير ذلك من اللقطات التي تكتمل بها لوحة المجتمع الجاهلي.

«والواقع أن الشعوب التي برحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقامها بين عشية وضحاها، إنها تحتاج إلى مراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأني الصبور حتى تنقه»[(١)].

برغم مضي أربعة عشر قرنًا على هذه الوصية فإنها ما زالت حيّة تتوهّج فيها أنوار صفاء الفطرة، فنقتبس منها قبسات للحاضر والمستقبل. فالوصية بحق مستند بنائي تربوي.

« فالتجديد شاق على النفس؛ لأنه يتطلب التخلي عن بعض المألوفات، كما يتطلب ضبطًا أكثر للنفس، والالتزام بتكاليف جديدة »[(٢)]، «والوصية توحي باهتمام العرب بالأواصر الاجتماعية، والعمل على إنجاح قيم الترابط والتواصل، وقيمة التراث الحقة هي دوام الصلة به، والعمل على الاستفادة منه وفق واقعنا إسقاطًا، ووفق خبراتنا المتجدِّدة »[(٣)]. وهذه الوصية تمثّل ثابتًا من ثوابت بناء الحضارة الإنسانية العليا التي افتقد منهجيَّتها وغايتها الغرب قديمًا وحديثًا.

«والوصية خطوة على درب التاريخ العربي؛ لأنها هدفت إلى تنمية إنسان،

---

(١) الطريق من هنا، محمد الغزالي، ص ١٦.

(٢) عصرنا والعيش في زمانه الصعب، د. عبد الكريم بكار، ص ١٤٠ .

(٣) تجديد الوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص١٥٧ .

وجعلت تنميتها ذات أولوية مطلقة»[١]. «وهي وصية يجب أن تدخل كل بيت، ويجب أن تقف عليها كل أم تريد لابنتها السعادة والهناء، وتسمو بها إلى معالي الخلق القويم السوي، مبتعدة بها عن كل ما يخلف الحضارة المعاصرة من زيف، ومظهر كذاب خداع»[٢].

وفي هذه الوصية «منفعة في الحض على طاعة الزوج وحسن التبعل، وندب نفس الزوجة برعايته والقيام بخدمته، وإحسان معاشرته، والإكثار من استرضائه، وإيثار ما يهواه؛ لتقتدي بذلك مِنْ النساء مَنْ بلغهن خبر هذه الوصية حتى يتأسَّين بها فتقر أعين أزواجهنَّ بهنَّ. ففي الحديث عن الأمم الخالية والأجيال البائدة، وضرب الأمثال بهم، وفي سيرهم: اعتبار للمعتبر، واستبصار للمستبصر»[٣].

فالوصية مظهر من مظاهر العلاقة، والحث على البذل في سبيلها من تضحية نفسية ومالية؛ فالأم لم تُرِدْ العبودية لابنتها كما قد يتوهم بعضهم، أو كما قد أفرغت المؤتمرات النسائية التي تعقد هنا وهناك فشحنت المرأة بأقاويل شتى، وشعارات جوفاء خلاّبة،لا يهدف مروجوها إلا إلى إخراج فتاة ذات سفسطة متعالمة بحقوقها، وهي أجهل ما تكون بذلك.

---

(١) تجديد الوعي، ص١٤٢.

(٢) جمهرة وصايا العرب ج١ ص٦٦.

(٣) بتصرّف شرح حديث (أم زرع) ص٣٦ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد إعداد لجنة من علماء المغرب.

وكذلك مؤتمرات السكان التي هي مظهر من مظاهر السيطرة (اليهوصليبية العالمية) التي ولجت كل المناحي: اقتصادية كانت، أو سياسية، أو اجتماعية، أو غير ذلك، وفق ما تقتضيه العولمة.

حقًّا إننا في بداية حقبة ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]. ولكنها سرعان ما تزول؛ لأن العلو الظالم إيذان بالنهاية، وارجع إلى القرآن وتفقَّدْ أحوال العالين تر صدق قولي. فبرغم تلال الهموم المتراكمة، وأمواج الظلام المتلاحقة، وسيول اليأس المتدافعة، يلوح الأمل في الأفق فيراه ذوو البصائر الموقنون بنصر ربهم.

ونحن حينما ندرس هذه الوصية ونتمعن معانيها إنما ندرس لوحة تراثية حفظتها لنا الأجيال، «وهذا الاتصال يحقق تخليد الأمم لمآثرها»(١).

فالوصية خلدت لأنها تحمل أفكارًا حية. «فلكل مجتمع تاريخه، وكما أن لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإن لديه مقبرة يستودعها أفكاره الميتة، الأفكار التي لم يعد لها دور اجتماعي»(٢).

و نحن أشد ما نكون حاجة الآن لمثل هذه الوصية كي تعيد الأمور إلى نصابها؛ خاصة بعد هذا السيل الجارف من الدعاوى المزيفة الخادعة من تحرر للمرأة و مساواتها بالرجل، وغير ذلك من شعارات ترفعها (الماسونية العالمية) -التي هي من أدوات اليهود- لنشر الانحلال، فتسهل السيطرة على المجتمعات كما ورد في نصوص البرتوكولات.

---

(١) الاتصال الجماهيري، ص٥٦.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص ٤٦.

وصية أمامة بنت الحارث
دراسة تاريخية تحليلية

نص الوصية :

لما حان أن تُحْمَل أم إياس إلى زوجها الحارث بن عمرو -ملك كندة- خلت بها أمها أمامة بنت الحارث[(١)]، وقالت توصيها[(٢)]:

أَيْ بُنَيَّةُ، إنَّ الوصيَّةَ لَو تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تُرِكَت لِذَلِكَ مِنْكِ، ولكِنَّها تَذْكِرَةٌ لِلْغَافِلِ، ومَعُونَةٌ للعاقِلِ .

ولَو أنَّ امرأَةً اسْتغْنَتْ عَنِ الزَّوْجِ لغنى أَبويْها ، وَشِدَّة حاجتِهما إلَيْها، كُنتِ أغنَى النَّاسِ عنه، وَلَكِنَّ النسَاءَ للرجالِ خُلِقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرجالُ .

أيْ بُنيةُ، إنَّكِ فارقْتِ الجوَّ الذي منْهُ خَرَجْتِ، وخلَّفتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ ، إلى وكرٍ لَمْ تَعْرفيه ، وقرينٍ لم تَألفيه، فَأَصْبحَ بمُلكِهِ عليكِ رَقيبًا ومَليكًا، فكُوني له أَمَةً يَكُنْ لَكِ عبدًا وَشيكًا.

يا بُنَيَّةُ، احملي عَنِّي عَشْرَ خِصالٍ تكن لكِ ذُخرًا وذِكْرًا:

الصُّحبةُ بالقناعةِ، وَ المُعاشرةُ بِحُسنِ السَّمعِ والطَّاعة، والتَّعهُّدُ لمَوْقِعِ عينِهِ، والتَّفقُّدُ لموضِعِ أنفِهِ؛ فَلا تَقَعُ عَيناهُ مِنكِ عَلى قبيحٍ، وَلا يشم منكِ إلا أطيبَ رِيحٍ، وَ الكُحْلُ أحْسنُ الحُسْنِ، والماءُ أطيبُ الطيبِ المفقودِ، والتَّعهُّدُ لِوَقْتِ طَعامِهِ ، والهُدُوُّ عَنه عِندَ مَنامِهِ؛ فَإنَّ حرارةَ الجوعِ مَلْهبةٌ ، وتنْغيص النَّومِ

---

(١) الأعلام للزركلي، ص ١١٢.

(٢) مجمع الأمثال للميداني : ٢/ ٢٦٢، العقد الفريد لابن عبد ربه : ٦/ ٨٣.

مغضبةٌ، والاحتفاظُ ببيته ومالِه، وَ الإرعاءُ عَلى نَفْسِهِ وَحَشَمِه وعِيَالِه؛ فَإِنَّ الاحتِفَاظَ بِالمالِ حُسنُ التقْدير، و الإرعَاءَ عَلى العيالِ والحَشَمِ حُسْن التَّدبيرِ. وَلا تُفْشي لهُ سِرًّا ولا تَعصي له أمرًا؛ فَإِنَّكِ إن أَفْشَيْتِ سرَّه لَم تَأمني غَدْره، وَإن عصيْتِ أمْره أوغَرتِ صدره، ثُمّ اتَّقي مَع ذَلكَ الفرَحَ إنْ كَانَ تَرِحًا، والاكتِئاب عِندَه إن كَانَ فَرِحًا؛ فَإِنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصير، والثانيةَ مِنَ التَّكدير. وكوني أَشَدَّ ما تكونينَ لَهُ إعظامًا، يَكُنْ أَشَدَّ ما يَكونُ لكِ إكرامًا، وأشدَّ ما تكونينَ له موافقةً، يكُنْ أطوَلَ ما تكونينَ لَه مُرافقةً. وَاعلمي أنكِ لا تَصلينَ إلى مَا تُحبينَ حتى تُؤثِري رِضَاهُ على رضاكِ، وهَواهُ عَلى هَواكِ، فِيما أحبَبْتِ وَ كَرِهتِ، وَ اللهُ يَخِيرُ لَكِ.

التمهيد

تعريف الوصية:

في« لسان العرب»: «أوصّى الرجل و وصَّاه: عهِد إليه، وسمِّيت وصية لاتصالها بأمر الميّت»(١).

وفي«القاموس المحيط»: «وصّى وصيا و وصاء و وصاءة: اتصل نباتها، ووصّاه توصية: عهد إليه»(٢).

فالوصية: نصح وإرشاد أو تقسيم خير، والوصية خطبة وجدانية هامسة؛ يهمس فيها الموصِي من قلبه إلى قلب الموصَى، فهي وإن كانت لغة الحوار فيها هادئة إلا أنها صيحات منتهى الود والإشفاق، والأم وضعت عنوان نصائحها (وصيّة)؛ وذلك في قولها: «أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تُركت لذلك منكِ». فلماذا أسمتها أمها وصية؟ و إنما الوصية تكون عند دنو الموت!

أرى أن الأم فعلت ذلك حتى تشعر ابنتها بأن استقلاليتها التي تتحقق من ليلة زفافها تلك إنما هي نهاية فترة حياتية مضت، و أن علاقتها بأمها التي كانت واسعة المساحة ممتدة امتدادًا يستغرق كلّ خصوصيتها، كل هذا من هذه الليلة ينحسر ثم يطوى، فهذا الطي هو إغلاق سجلٍّ دوِّن فيه الماضي.

ويبدأ التدوين في سجل الزوج الذي ترجو الأم ابنتها -حينما تمثل وصاياها- أن يكون كلُّ ما يدوَّن فيه مشرِّفا تفخر به. فالفتاة تودِّع مرحلة وتستشرف أخرى

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، جـ ١٥ ص ٣٢٠و٣٢١ ، مادة (و-ص- ى).

(٢) القاموس المحيط، الفيروز ابادي ، ص ١٧٣١، (باب الصاد فصل الواو).

جديدة تخطو نحوها بخطى واثقة؛ ملأتها أمها برصيد التجربة، وحشدته بالمعلومات (الذخيرة) التي تستمد منها وقت الحاجة والضرورة ما يعينها.

وهل هناك أدقُّ من هذه المرحلة في حياة الفتاة؟! إنها تودع فترة حياتية مضت؛ لذلك أسمتها الأم (وصية)، وهذا إشعار بأن دور الأم التخطيطي في حياة الفتاة المستقبلية قد توقَّف، لذلك أفرغت الأم خلاصة تجارب السنين وما حنَّكتها به الأيام وأرضعته ذهن ابنتها. «وقد كان العربي إذا توقع الخطر، وضربه أمر يحتمل أن يؤدى به إلى الموت سارع إلى وصية، فإذا عجز عن ذلك حمل وصيته إلى من يثق في إبلاغها»(١).

وهل تثق الأم بأحد أكثر من ابنتها؟ وفي هذا «حديث عمر: آمروا النساء في بناتهنّ؛ هو من جهة استطابة أنفسهنَّ، وهو أدعى للألفة، وخوفًا من وقوع الوحشة بينهما إذا لم يكن برضا الأم؛ إذ البنات إلى الأمهات أميل، و في سماع قولهنّ أرغب، ولأن المرأة ربما علمت من حال ابنتها الخافي عن أبيها أمرًا لا يصلح معه النكاح؛ من علّة تكون بها، أو سبب يمنع من وفاء حقوق النكاح»(٢).

«وتعد الوصية من الموضوعات الهامة للدراسات النفسية، وهي تستأهل العناية الكبرى من المختصين؛ ففيها تتجلى بوضوح تفاعلات الخلايا العقلية؛ الظاهر منها، والباطن، و تستبان في معالمها عناصر الحالة الفكرية الحادة التي تصيب الإنسان عندما يتهيأ للوصية، فهي وليدة إشراف على الموت، أو فراق

---

(١) وصايا في الأدب العربي القديم د. سهام الفريح ص ١٦.

(٢) لسان العرب، ج ١ ص ٢٠٦ ، مادة (أ- م - ر).

عزيز، فهي نتاج فكري لتفاعلات متناقضة المؤثرات يظهر فيها ما للبشر من طبائعهم الغريزية وفي سلوكهم المعاش»[١] إنها عصارة محبّة خالصة تسديها أم لابنتها كي تسعد و تهنأ في حياتها الجديدة.

فعندما قالت الأم: «**احملي عني عشر خصال**» فهي تفصِّل ما أجملت حينما قالت: «**إن الوصية لو تُركت...**»؛ فالوصية كلمة عامّة مجملة شرعت الأم في تفصيلها و أيضّاحها، و أفصحت عن مكنون الوصية في قولها: «**عشر خصال**».

ثم: «**اتقي مع ذلك...**» وهذا حاشية الوصية وتذييلها، وهو لا يقلّ أهمية عن متن الوصية.

والأم حدّدت غاية هذه الوصية بقولها: «**تكن لك ذخرًا وذكرًا**»، وهذا لن يكون إلا إذا امتثلت الابنة، وأحسنت الاستفادة بالوصية. «والذخر: ما أعددته لوقت الحاجة إليه»[٢]، وهو كم معلوماتي تبرع في توظيفه.

والأم لم تكن لديها عقدة النقص فتلجأ إلى التسويغ والتماس الأعذار للأخطاء، فجاءت وصيتها تبني الفاعلية الاجتماعية لدى ابنتها، ومن ثم تصبح قانونًا تسير وفقه الأسر؛ فلقد كانت الأم تخشى على ابنتها التقصير والقعود، وعدم القيام بواجبات الزوج، ولكن الفتاة لَّما استجابت أفلحت، وشرفت بها أمها وبنو قومها، والأجيال بعدها، و ها نحن نرويها ونتدارسها.

وتمتاز الوصية بوضوح المناسبة والغاية، لذلك أمكن خلودها واستمرارية

---

(١) وصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح ص ٨.

(٢) المصباح المنير، مادة (ذ – خ – ر)، ص ٢٨١.

عملها التنموي في بناء الوعي الذاتي لدى الأمة، والوصية تمثّل حلقة في سلسلة التوارث الفكري الإنساني، «فالأحداث المبتوتة الصلة عن إطاراتها ومناسباتها تظلّ مستغلقة، فهي برقم ليس له منظومة عددية»[(١)]. والأم حذر الانغلاق أخذت تُفعّل دور ابنتها وتؤكد من حين لآخر على أهمية الإيجابية الفاعلة.

والخط المسيطر على الوصايا هو قبول الأمر الواقع، والإيمان بحركة الحياة، وتقديم تجارب العمر في كلمات قليلة؛ كلمات مرتعشة، وصور باكية، وموسيقا مليئة بالأحزان والشجن، فالموصي في حالة خلل فسيولوجي نتيجة الفراق، مما تضطرب معه الأعصاب وتنسكب العبرات، بل ويهتز الكيان كله.

ورغم بداوة الأم وأميتها إلا أنها أبصرت عن أفق بعيد ممتد أن سر السعادة يكمن في التحلي بكريم الأخلاق، «والأخلاق ليست شيئًا يكتسب بالقراءة والكتابة أو الخطابة والدعاية، إنها درجة تكتسب بالمعاناة الشديدة، والمرء في هذا الميدان يصنع نفسه»[(٢)]. فبرغم الأمية العامة إلا أن هذا المجتمع بقيت فيه قيم وأخلاق جاء الإسلام فجمّلها ووجّهها، وأبقى أحسنها وأكرمها، و محى رذيلها وسيئها.

لماذا اختصت الأم ابنتها بالوصية ؟

يرجع سر إلقاء عبء المسؤولية على الزوجة أن المرأة العربية كانت قبل الإسلام أكثر تمثلًا للطابع المحلي من الرجال؛ لأنها الأقرب إلى الفطرة، والألصق

---

(١) تجديد الوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص١٥٢.

(٢) الطريق من هنا، الغزالي، ص ٤٩.

بأرض الواقع المحدود من الرجل، ومن ثم كانت حارسة التقاليد وراعية التراث، على حين كان الزوج أو الأخ أو الأب يغامر في دروب الصحراء؛ منتجًا للرزق المتاح، أو غازيًا طالبًا للأسلاب؛ فهو يطور الواقع ويغير - وهي تحافظ على عنصر الثبات والاستقرار فيه ضمانًا لاستمراره، وبالتالي استمرار المجتمع وتماسكه.

وكان من نتائج هذه الأوضاع أن أوكلت القبائل إلى نسائها الوظيفة الاجتماعية(١).

والملاحظ أن الوصية: أقامتها الأم وأسستها على شطر واحد: (الزوجة). وفي ذلك إشعار من الأم أن سفينة الحياة الزوجية يقودها قائد واحد، وعلى من علا متن هذه السفينة اتباع ما يجب عليهم عمله.

فأخذت تسترسل مع ابنتها على ما يجب عليها حيال زوجها، فإن استجابت الابنة نجت السفينة.

الأم أخذت برفق وتؤدةٍ يد ابنتها وأجلستها بجوارها، وأفرغت عليها سكينة فؤادها المترع بمحبَّتها، ثم ألبستها ثوب الحكمة والعقل حين خاطبت فيها أنوثتها.

وكانت الأم تمازج بين الفطرة الأنثوية والحكمة العقلية الواقعية، فسكبت عصارة وجدانها في وجدان ابنتها فاستحالت طيعة لينة؛ تستمع فتنصت، وتتأثر فتستجيب.

طوَّفت الأم بابنتها في عوالم شتى، فأدخلتها عالم نسبها وعزها، ثم بلطف

---

(١) بتصرف من مقال: «فن الرثاء في الشعر العربي القديم، د. حسن فتح الباب»، مجلة جذور التراث، ص ٣١٥.

ردتها إلى مرجعيتها التاريخية فأقرأتها ما أرادت، ثم حلَّقت بها في عالم الغريزة الفطرية: **«ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال»**.

ثم أشعرتها بلذة محبة الزوج زوجه: **«كوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا»**.

ثم أوقفتها على حقيقة الواقع: **«وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة»**.

فالأم خافت على ابنتها التهميش، فعلَّمتها كيف تصنع الحياة، فمن عاش على هامش الحياة تحلَّل ذاتيًا، وتأسَّنَ كما يأسن الماء الراكد.

إني رأيت ركود الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

«ففاعلية الفكرة رهن شروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان»[1].

«فالفكرة من حيث كونها فكرة، ليست عنصرًا صالحًا لتحديد سلوك ونمط معين من أنماط الحياة؛ فإن فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية التي ينطبع بها مستوى الحضارة في المجتمع»[2]. والبيئة التي تُقبل الفتاة عليها بيئة ملك، فهي تحتاج كل إمكانات الفتاة وأكثر، فلذلك هيئتها الأم وأحسنت تنمية قدراتها، مع حسن تربيتها وإعدادها أنثويًا وأخلاقيًا رغم الجاهلية الضاربة في أعماق المجتمع

(١) مشكلات الثقافة، مالك بن نبي، ص ٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦.

آنذاك.. «فالأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقها، وربما اختلفت تقاليد وأحكام، ولكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله في الفطرة من تحسين الحسن وتقبيح القبيح»(١).

لذلك ساقت الأم نصائحها، وهي حين إسدائها كانت تستمد من مخزون الفطرة التي يكمن في طياتها طيب الأخلاق.

أهمية الوصية:

« الوصية تعد وثائق نفسية من الموصِي للموصَى»(٢).

«إن هذه الوصية تعد من أفضل الوصايا وأكملها في موضوعها، وخصوصًا أنها صدرت من امرأة ذات مكانة وشرف، وقد نعمت بحظ وافر من الحياة، وكذلك الزوج الذي زُفَّتْ له الفتاة الموصى لها؛ فهو من ملوك كندة»(٣).

واتصال الأم بابنتها كان اتصالًا مباشرًا، ولذلك آتى أكله، فالمركز الاجتماعي يكسب الرسالة الموجهة قيمة عليا، والأم لم ترد لابنتها التقوقع والانغلاق، بل أرادت لها انفتاحًا عاقلًا. «إن أكثر ما يغير في وعي الإنسان هو انفتاحه على أحداث الحياة اليومية»(٤).

ولعل هذا ما دفع الأم إلى إيجاد جسور التواصل بين ابنتها وبين واجباتها

---

(١) الطريق من هنا، الشيخ الغزالي، ص٥٠.

(٢) الوصايا في الأدب العربي، د. سهام الفريح، ص ٨.

(٣) الوصايا في الأدب العربي، د.سهام الفريح، ص٣٨.

(٤) تجديد الوعي، د عبد الكريم بكار، ص١٤.

نحو زوجها، وعملت على توسيع دائـرة الإدراك لـدى ابنتهـا حتـى لا تكـون أسيرة الانغلاق الذي يودي بسعادة ابنتها الأسرية.

والوصية توحي باهتمام العرب بالأواصر الاجتماعيـة، والعمـل عـلى إنجـاح قيم الترابط والتواصل، وظهر هذا أيضًا من خلال أشعارهم وأمثالهم، على حـين كانت الفلسفة هي الشغل الشاغل لأصـحاب الحـضارات الأخـرى، اللهـم إلا الفرس الذين احتوت آدابهم على بعض الحكم والعبر، إلا أنها لم ترق إلى ما رقـى إليه العرب في آدابهم، رغم ما كان عليه الفرس من ملك واسع وحضارة عريقة.

« فالبدوي مرهف الحس، سريع التهـيُّج، يحـب الحريـة والمـساواة، ويتميَّـز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة، وقلَّما يهتم بما وراء الطبيعة، والأفكار الفلسفية العميقة، هذا إلى أنه يميل إلى وصف المرئيـات؛ يهـتم بالجزئيـات دون الكليات، ويتميز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بـين الأشـياء»[١]. وإني أختلـف مـع هـذا الـرأى القائـل بـأن العـرب لا يهتمـون بالكليـات ولا الأفكارالعميقة، ومن ينعم النظر فى أشعارهـم ونثرهـم يـوقن بـأن للقـوم بعـدًا فكريًا موضوعيًا جديرًا بالبحث والتأمل.

«والوصية نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة، تنتقـى ألفاظهـا انتقـاء ممتازًا يطلقها مجرب حياة ومختبر دنيا، فيشرع فيها نهجًا قـويًا وسـلوكًا تنظيميًـا لإنسان عزيز عليه أو مهم لديه يبصره»[٢].

---

(١) تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، د.صالح أحمد العلي، ص ١٦٠.

(٢) جمهرة وصايا العرب: ١/١٨.

«ولا يزال الإنسان يحترم وصايا أجداده، ويكبرها ويحاول أن يضعها موضع التنفيذ الدقيق ما أمكنه؛ تعبيرًا عن الوحدة الروحية، والتماسك الوفي؛ وكأنه بقية من عصور تقديس الأسلاف. والوصايا التي احتفظ بها التاريخ يمكن أن تكون بذاتها سجلًا صادقًا لأنماط العلاقات الأسرية والاجتماعية، وانعكاسًا حيًّا لتطور القيم والأفكار، وقرائن صادقة للمواقف التي وجَّهت هذه الوصايا وحكمت أسلوبها وأهدافها»[1]، «فالشرق في طمأنينة وسكون، وقد بلغت شعوبه درجة ظاهرة من التسليم الهادئ الذي هو عنوان السعادة على الأقل، ولا عهد له بما عند الغرب من الانقسامات والحياة الصاخبة»[2].

فعلى الرغم من مضي أربعة عشر قرنًا فما زالت هذه الوصية تمثل ثابتًا من ثوابت بناء الحضارة الإنسانية العليا. والوصية مسلك فطري يدل على غريزة تناقل الخبرة، وأثر الزمن في تنمية المعرفة، واستشفاف المستقبل، وتوقع ما سيكون استبصارًا، وهي الثمرة الفكرية التي يكتسبها الفرد من تجاربه في حياته اليومية، ومن تفاعل هذه التجارب مع مجتمعه.

«والوصايا من الموضوعات الهامة في دلالتها النفسية والاجتماعية والفكرية أيضًا؛ فهي في صدورها عن شخص بعينه إلى من يحبهم ويؤثرهم، إنما يعبر عن روح الاستقرار وغريزة حب البقاء حين يمنحهم زبد تجربته الطويلة وخبراته المتنوعة، فكأنه يحيا مرة أخرى من خلال هؤلاء الأعزاء الذين يرمي إلي تشكيل

---

(١) الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح، ص ١٧.

(٢) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص ٢٩ بتصرف.

حياتهم على نحو يرضيه، ويستبقي أفكاره حية بعد موته وفنائه»[١].

والموصي أثناء توصيته يحث الموصَى على تلافي الأخطاء التي سبق وانزلق إليها الموصي، ويحلِّل له عوامل الضعف فيتجنبها، ويبرز أهمية الاستفادة من عوامل القوة، ويرسم له خارطة شاملة تستغرق جزئيات الصور، فتحيطه علمًا بالأمور، فينمو إدراكه ويزداد وعيه، فيكون قد جمع خبرات عصور عدة وعقول شتى، فتتضح الرؤية وينطلق الحكم سديدًا، وهذا من أعظم فوائد الوصايا.

«والوصية موجزة قصيرة، وهي كالأمثال، فاحتفظت بلغتها، ولم يصبها التهذيب؛ وذلك لأنها اتصفت بمتانة السبك، وجودة التقسيم، وقصر العبارة فيسهل حفظها على الذاكرة، وانتقالها من جيل إلى جيل»[٢].

توثيق الوصية:

كيف وصلت إلينا هذه الوصية؟

« الرواية وسيلة اتصالية لحفظ التراث؛ فهي تقوم بمهمة أساسية في نقل التراث الحضاري عبر الأجيال، وبدونها لضاع زخم هائل من كمٍّ التراث المحفوظ الآن مكتوبًا، و بدونه كان يمكن أن تتجمَّد وتتضاءل المعرفة؛ إذ إن الحضارة الإنسانية هي تراكم المعارف الإنسانية»[٣].

«في الجاهلية كانوا يعتمدون على الرواية، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته،

---

(١) الوصايا في الأدب العربي القديم، د.سهام الفريح، ص١٧.

(٢) الوصايا في الأدب العربي القديم، د.سهام الفريح، ص١٩.

(٣) الاتصال، خليل أبو الإصبع، ص٧١.

ويتلقَّاها عنه الناس ويروونها. وكلُّ هذا عن طريق الرواية الشفوية، وقد ظلَّت أزمانًا متتالية في الإسلام، ويدلّ على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوي ظلَّ في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة»[1].

«وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحيانًا ليستقي الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها، حيث هؤلاء الرواة العلماء، ليمدّه بما يريدون، وقد أظهروا في عملهم مهارة منقطعة النظير؛ إذ تحوَّلوا يجمعون المادّة الجاهلية جميعها، وكان من هؤلاء الرواة: المفضّل الضبي»[2]. والمفضّل الضبّي أحد الرواة لهذه الوصية في كتابه الأمثال.

والعرب « كانوا يشغفون بالقصص شغفًا شديدًا، وساعدهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر»[3]. ومن الطبيعي أنهم في هذه الأسمار يتداولون ما أعجبهم من أشعار وأقوال نالت إجماعًا نقديًا بتميُّزها، وليس من المستبعد أن هذه الوصية كانت تتناولها هذه الأسمار كأحد معالم هذه الفترة التاريخية.

«ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية لبعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها. ولكنّ هذا لا ينتهي بنا إلى إنكارها على الجاهليين، بل لا ينتهي بنا إلى إنكار ازدهارها؛ فقدكان كلُّ شيء عندهم يؤهّل

---

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ١٤١ بتصرّف.

(٢) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ١٤٨.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٣٩٩.

لهذا الازدهار؛ إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية، وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم، ومن أسواقهم، ومن ساحات الأمراء ووفادتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال وحوك الكلام، وأسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلابة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة، حتّى ليقول الجاحظ: (وكلّ شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام)»[١].

«علم التوثيق... حاجة ماسّة مع الدفق الهائل في المعلومات؛ فبدونه تضيع خدمة الإنتاج الذي لا زال مقيّدًا بالكتب، والذي يحتاج إلى التوثيق عن طريق إعداد البيلوغرافيات المرجعية وتحميل معلوماتها على الوسائط الإلكترونية المعاصرة.... فعلم التوثيق هو مجموعة العمليات المترابطة والمتناسقة لتوصيل المعلومات والمعرفة إلى طبقة العلماء والباحثين»[٢].

والعرب في جاهليتهم لم يكن لهم مرجعيات علمية، ولا حتى تدوينية، بل كان كلُّ اعتمادهم على ذاكرتهم والرواية؛ فما وعته الأذهان وحفظته الذاكرة نقله الرواة لنا، وأمّا ما طوته ريح النسيان فزال. «قال يونس ابن حبيب: قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهي إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[٣].

«والأفكار التي ليست من بين القوى الجوهرية التي نتجت عنها الحركة

---

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٤١٠.

(٢) علم الأعلام/الوثائق والمحفوظات، د. عبد الله أنيس طباع، ص ١١ بتصرف.

(٣) الخصائص، لابن جنى، ج١ ص ٣٢٩.

التاريخية تتقادم ثمّ تختفي... وقد تنقطع صلة بعض الأفكار بالوسط الاجتماعي ذاته؛ أعني أنها تنقطع من منابع خلقية وعقلية صدرت عنها، فتكسب هذه الأفكار وجودًا صناعيًا غير تاريخي، وبذلك كلّ معنى اجتماعي»[١].

ثم الترابط العائلي الذي رأيناه بين كبار الشخصيات آنذاك مثل: (هند بنت الحارث تزوجها المنذر)، (هند بنت الحارث عمة امرئ القيس)، (النعمان بن الأسود ابن المنذر أمه أم الملك ابنة عمرو بن حجر أخت الحارث بن عمرو). ثم الخلود الحي للوصية يوحي أنها خرجت خروجًا طبيعيًا جوهريًا من بيئة عربية أصيلة.

فالوصية كانت نتاجًا إنسانيًا آنذاك؛ فهي تحمل أفكار وعقلية وخلق هذا الزمان وأهله في لمحة اجتماعية متألّقة، فهي تمثّل لحظة سمو ارتقت إليه نفوس غلبت عليها شقوتها.

توثيق النص من دلالات الروايات:

«فلمّا أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنيّة...» مجمع الأمثال.

«فلمّا كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت: أي بنيّة...» العقد الفريد.

«فلمّا حان أن تُحمل إليه دخلت أمها لتوصيها فقالت: يا بنيّة...» جمهرة الأمثال.

وقد جاء في «جمهرة الأمثال»: «فدخلت عليها - أي عصام على أم إياس - فإذا هي كأنها خاذل من الظباء، وحولها بنات كأنهنّ شوادن الغزلان، فقالت لابنتها: إن هذه خالتك أتتك لتنظر إلى بعض شأنك فلا تستتري عنها بشيء،

(١) مشكلات الثقافة، مالك بن نبي، ص ٤٦.

وناطقيها فيما استنطقتك فيه، فدخلت عليها...».

و في «مجمع الأمثال» رسم الإطار العام، حينما همَّ الموكب بالتحرك بالعروس، وقبل الظعن إلى الزوج، الملك،كان لا بد أن تخلو الأم بابنتها، وكانت العروس تحمل في هودجها ولا يراها أحد، هنالك أوصت الأم الفتاة العروس. وعلى هذا الحال يمكننا أن نستشفّ أن الحضور سمعوا وصية الأم قبل أن تُحمل إلى هودجها، ويبدو أن هذه كانت عادة عند العرب: (الوصية عند الهداء). وكان الحضور جمعًا: «أرادوا»، «يحملوها»، فاستمع هذا الجمع الوصية وحفظوها و تناقلوها.

ولم يشتهر في هذا الباب وصية كهذه، وذيوع صيتها وملؤه الآفاق وتناقلها عبر الأجيال إجماع نقدي ودليل على روعتها رغم بساطتها، فهذا الإجماع استحسان لها.

في «العقد الفريد»: «لما حان رحيل العروس إلى زوجها ليبني عليها خلت بها أمها».

الأم اقتنصت الفرصة السانحة وأوصت ابنتها، واختلاء الأم بابنتها يجعلنا نستشف أن الابنة روت فيما بعد الوصية بنفسها اعتزازًا وافتخارًا، وتأثرًا بموروث عزيز لديها، ودليل على أن امتثالها طاعة للأم لم يكن رهين موقف، بل كان قناعة ذاتية تشكلت بها شخصيتها.

فدلالة «خلا»: الانفراد وخلو المكان: «وخلوت به... انفردت به. وخلا

المكان والشيء يخلو خلوًّا... إذا لم يكن فيه أحد ولا شئ فيه»[1].

وفي «جمهرة الأمثال»: «دخلت إليها أمها»، هنا الحال يقتضي وجود صويحباتها بدليل أن عصام حينما أرادت رؤيتها ومحادثتها أدخلتها أمها إليها وهي مع صويحباتها، وألقت إليها ما أرادت من تعليمات تنفّذ، ولم تخل بها حياءً من البنيَّات، ولكن يبدو أن البنات بعد ذلك تركن العروس مع عصام، وهذا من الآداب العامّة، لكن الأم دخلت إليها، وليلة الزفاف لا تترك الفتيات العروس إلا لأمر، فهنَّ يهذِّبن ثيابها، ويقمن بما يستلزمه الزفاف. فالفعل (دخل) مسندًا إلى الأم هنا يوحي بالتفرُّد الذي هو من دلالة الفعل (خلا)، فالفعل دلالته الانفراد والوحدة.

ففي روايتي «الجمهرة» و«مجمع الأمثال» دليل على حضور جمع من الناس واستماع الوصية، ونقلها رواية، فهنا الرواية جماعية. أمّا في رواية «العقد الفريد» فالعروس هي الراوية، وربما أمها نفسها؛ اعتزازًا ورسوخ اعتقاد بما احتوته الوصية، وافتخارًا من الأم بامتثال ابنتها وصيتها، وأنها جسَّدتها واقعًا مرئيًّا في حياتها، فأفلحت مع زوجها وأنجبت منه ملوكًا ذاع صيتهم و اشتهر أمرهم بين العرب. والبنت صورة أمها.

«كان كلُّ عربي على مقدار وعيه وحفظه: كتابًا، أو جزءًا من كتاب، وكانت كل قبيلة لذلك كأنها سجل زمني في إحصاء الأخبار والآثار... والعرب قوم معنويون، ولم يجر من الأحكام النفسية على أمة من الأمم ما جرى عليهم، ولهذا

---

(١) لسان العرب، ج٤ ص ٢٠٦ – ٢٠٥ مادة (خ – ل – ا).

كان لا بد لهم في أصل الخلقة من الحوافظ القوية التي ترتبط مآثر تلك النفوس ارتباطا و إلا اختل تركيبهم الطبيعي، وانتفت الموازنة بين قواهم....ودليل ذلك اتّساعهم في المحفوظ؛ فإنك لست واجده إلا في المعاني النفسية، ممّا يرجع إلى التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب، والتعاير بالمثالب والتنابز بالألقاب، ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا إليها، ولاستغنوا بها عن الحفظ...حتى تكون عند الخاطر إذا خطر، والهاجس إذا بدر، وليس لذلك غير اللسان...فكان كل عربي بطبيعته راويًا فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه»[١].

«ولم يكن في العرب شيء من الرواية كصناعة علمية إلا في دولة بني مروان؛ فالإسناد لا يراد به إلا شهادة الزمن على اتصال النسب العلمي بين راوي الشيء و صاحب الشيء المروي»[٢].

(١) تاريخ آداب العرب، الرافعي: ١/ ١٧٧ بتصرّف.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٨٧.

الباب الأول

البعد التاريخي والسياسي للوصية

الفصل الأول

عائلة الزوج

كانت هذه الوصية حينما خطب الحارث بن عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلّم الشيباني ابنته «أم إياس».

ولقد اشتهرت بعض القبائل بصفات برزت فيها، وكان يقال: «مازن غسان أرباب الملوك، وحمير أرباب العرب، وكندة كندة الملوك، ومذحج مذحج الطعان»[(١)].

«وتعرف كندة الملوك؛ لأن المُلكَ كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان... وبلادهم بجبال اليمن مما يلي حضرموت، ومنها دمّون التي ذكرها امرؤ القيس في شعره»[(٢)].

وقد ارتبط الحارث مع عدّة قبائل برابطة الزواج، فامتد حكمه إلى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة[(٣)].

والحارث الحراب: ملك من ملوك كندة؛ قال الشاعر:

والحارث الحراب حل بعاقل ... جدثا أقام به ولم يتحول[(٤)]

و قد تلاحم بالمصاهرة ملوك الحيرة وكندة، واتسع ملك كندة حتى وصل إلى مشارف الحيرة. و هاجرت كندة مع القبائل اليمنية في وقت مبكر من التاريخ نحو الشمال، واستقرَّت في وادى الرمّة الذي يمتدّ من شمال المدينة إلى مشارف العراق.

---

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني، ٢/ ٢١١.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٢٩٨.

(٣) تاريخ الحضارات العام: ١/ ٩٤-٩٥.

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق د. رمزى بعلبكى: ١/ ٢٧٦.

تأسيس ملك الحارث:

وفي تلك النواحي أسس الكنديون ملكهم الذي كان يخضع بالولاء لملوك حمير في اليمن، وأبرز ملوك الكنديين هو حجر الملقَّب بآكل المرار، الذي تمكَّن من بسط سلطانه على قبائل نزار بما فيها بكر وتغلب، وأخذ سلطانه يمتدّ شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى مشارف الحيرة، وحكم من بعده ابنه عمرو بن حجر، ولكن فترة ملكه لم تدم طويلا، فجاء من بعده ابنه الحارث بن عمرو، وفي عهده بلغ سلطان كندة شأنًا بعيدًا، ويروى أن ملك فارس قباذ بن فيروز قد طرد المنذر بن ماء السماء من الحيرة، وملَّك الحارث بن عمرو الكندي بدلًا منه.

«وتشير الروايات إلى أن القبائل من نزار في ذلك العهد تفاسد أمرها، وغلب عليها السفهاء، فلجأ أشراف هذه القبائل إلى الحارث بن عمرو، وشكوا إليه حالهم ورجوه أن يملِّكَ أبناءه عليهم حقنًا للدماء ومخافة أن يفني بعضهم بعضًا، فأجابهم الحارث إلى ذلك... وبذلك تمَّت لكندة سيادتها على قبائل الشمال، ودان لها العرب بالولاء»[1].

«وذكر ابن خلدون: أن الحارث بن عمرو لمّا ولي على العرب بعد أبيه اشتدّت وطأته وعظُم بأسه، ونازع ملوك الحيرة، وعليها يومئذ المنذر بن امرئ القيس، وحينما دعاه قباذ -وكان على دين مزدك- أجابه الحارث بن عمرو فملّكه على العرب وأنزله بالحيرة»[2].

---

(١) أدب ما قبل الإسلام دراسة وصفية تحليلية، محمد عثمان علي، ص ٤٠ - ٤١ بتصرف.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٣١٨.

تبع اليماني و خؤولته للحارث بن عمرو:

قيل: «إنما ولّاه تبع بن حسَّان بن تبّع، فجاء الحارث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معدَ والحيرة، فسار إليهم النعمان بن امرئ القيس ابن الشقيقة وقاتله، فقتل النعمان وعدَّة من أهل بيته، وانهزم أصحابه... وتشتَّت ملك آل النعمان، وملك الحارث بن عمرو ما كانوا يملكونها»[(١)].

تظهر لنا الأحداث - إذن - عظم مكانة كندة، فكما يقال لها: كندة الملوك، خاصّة عظم الدور الذي قام به الحارث بن عمرو؛ وهو الزوج الملك الذي قامت من أجله الأم توصي ابنتها التي ستصبح زوجة لهذا الملك، فانظر الأحداث وعظمها تر عظمة صانعيها.

اتساع ملك الحارث:

والذي يعنينا في هذا البحث هو إثبات اتساع ملك الحارث، وتعدد الروايات أثبت ذلك، ولكنها اختلفت في الأسباب؛ فإن ملك كندة لم يمتدّ إلا إبّان حكم الحارث بن عمرو عندما آزر قباذ واتَّبع دينه.

الحارث وعلاقته بقباذ:

«كان قباذ بن الفيروز ملك فارس قد بعث إلى الحارث بن عمرو الكندي: إنه قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد، وإني أحبُّ أن ألقاك، وكان قباذ زنديقًا يظهر الخير ويكره الدماء... وكثرت الأهواء في زمانه، واستضعفه

(١) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٣٠٦-٣٠٧.

الناس، وخرج إليه الحارث بن عمرو الكندي في عدد وعُدّة حتى التقوا بقنطرة الفيُّوم، فأمر قباذ بطبق من تمر فنزع نواه، وأمر بطبق فجعل فيه تمر فيه نواه، ثم وضعا بين أيديهما، فجعل الذي فيه النوى يلي الحارث بن عمرو، والذي لا نوى فيه يلي قباذ، فجعل الحارث يأكل التمر ويلقي النوى، وجعل قباذ يأكل ما يليه، وقال للحارث: ما لك لا تأكل مثل ما آكل؟ فقال له الحارث: إنما يأكل النوى إبلنا وغنمنا، وعلم أن قباذ يهزأ به...»[1].

كان الحارث ينطلق كنِدٍّ لملك فارس قباذ و يتعامل معه معاملة النظير.

و«لمّا ملك قباذ وكان ضعيف الملك توثّبت العرب على المنذر الأكبر بن ماء السماء... فأخرجوه فخرج هاربًا منهم حتى مات في إياد وترك ابنه المنذر الأصغر فيهم، وكان أنكى ولده، وجاءوا بالحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فملّكوه على بكر، وحشدوا له وقاتلوا معه، وظهر على من قاتله من العرب، وأبى قباذ أن يمدَّ المنذر بجيش، فلمّا رأى ذلك كتب إلى الحارث بن عمرو: إني في غير قوم، وأنت أحقّ من ضمَّني، وأنا متحوِّل إليك، فحوَّله وزوَّجه ابنته هندًا»[2].

وهند هذه ابنة الحارث الكندي هي ابنة الفتاة التي نحن بصدد وصية أمها لها ليلة زفافها، وابنها عمرو بن هند -الملك الشهير- وكان مستبدًّا متكبِّرًا.

ورد الحارث على قباذ كان يستند على رصيد من قوّة منحته الثقة في مواجهة ملك فارس، فلم يخنع أو يجبن، لأنه علم ضعف قباذ، ممّا أطمعه في

---

(١) تاريخ الأمم و الملوك، الطبري: ١/ ٤٢٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٣١٧ بتصرّف.

الإغارة عدة مرات على مملكة قباذ.

فقد كان ردّ الحارث على قباذ يرتكز على ركائز:

الأولى: التراكمات الموروثة التي تلقَّاها الحارث عبر آبائه وأجداده من أنفة وشموخ النفس.

الثانية: موضوعية الواقع: ضعف قباذ، طبيعة قباذ الدينية التي تحول بينه وبين سفك الدماء.

الثالثة: قوّة أخواله في اليمن، «فجمع تبع الجنود، وسار حتى نزل الحيرة وقرب من الفرات... وأمر الحارث بن عمرو أن يشقّ له نهرًا إلى النجف ففعل، وهو نهر الحيرة، فنزل عليه، ووجَّه ابن أخيه شمرًا ذا الجناح إلى قباذ، فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالري، ثم أدركه بها فقتله، وأمضى تبع شمرًا ذا الجناح إلى خرسان، ووجّه تبع ابنه حسّان إلى الصغد»[1].

نهاية ملك الحارث بن عمرو:

بقي الحارث وأبناؤه ملوكًا يحكمون مساحة واسعة من بلاد العرب إلى أن ملك كسرى أنوشروان بن قباذ بعد مقتل أبيه، فقتل مزدك وأصحابه، وأعاد المنذر ابن ماء السماء إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو -وكان بالأنبار وبها منزله- فهرب هو وأولاده وماله، وتبعه المنذر بالحيرة فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه، وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسًا من بني آكل المرار -فيهم عمرو ومالك ابنا

(١) تاريخ الأمم و الملوك ،الطبري: ١/ ٤٢٠ بتصرف، وأثبت ذلك أيضا ابن الأثير في الكامل: [الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١/ ٤١٥-٤١٦]، وصغد في منطقة آسيا الوسطى اليوم.

الحارث- فقدموا بهم علي المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا، وفيهم يقول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا

نظرة متأملة:

نستخلص مما سبق:

١- أن الحارث بن عمرو لم يكن زوجًا عاديًا، بل هو الزوج الملك؛ لذلك فإن الأم لم تجنح عن الصواب حينما وجَّهت جُلَّ اهتمامها، وصبَّت خلاصة تجاربها كي تواصل ابنتها تفوقها في حياتها، فكانت الوصية مناسبة مكانة الملك. لذلك حثَّت الأم خطاها نحو مدارج العلا، وأخذت بيد ابنتها كي ترقى بها، فنجاح الأم قامت به ابنتها.

٢- الترابط العائلي الذي رأيناه: (هند بنت الحارث تزوجها المنذر)، (هند بنت الحارث عمة امرئ القيس)، (النعمان بن الأسود بن المنذر أمه أم الملك ابنة عمرو بن حجر أخت الحارث بن عمرو)، هذا الترابط يعد وثيقة تاريخية ودليلًا دامغًا على ثبوت هذه الوصية؛ فلا يمكن اصطناع كل هذا الترابط. «فالتاريخ ليس إيثارًا أو تخيرًا، بل استحضار للماضي بكل مظاهره وواقعه، فعلينا إذًا أن نصف بكل دقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف

مجتمعه في وحدتها الزمانية والمكانية»[1].

٣- استدعاء القبائل لملوك كندة كي تحكمها وقت الانفلات وغلبة السفهاء دليل قوى على نجاح سياسي وأمني. والعرب في جاهليتهم لم يتمكن حاكم أن يبسط نفوذه على أرجائها، فكون هذه القبائل تستنجد بهم ليحكموها أمر له دلالاته الجديرة بالاهتمام، ولكنه لا يعني المركزية.

٤- اتباع الحارث للديانة المزدكية إبان حكم قباذ لم يكن إلا (برجماتية)؛ وهو ما تقوم عليه السياسة العالمية الآن. فالعرب في جاهليتها لم تتخذ إلا الأصنام دينًا، وكان نداء الفطرة هو الذي جعلهم يبحثون عما يلبيه، ولكنهم ضلوا الطريق.

٥- لم تذكر لنا المصادر أي أبناء الملك كانوا من «أم إياس»، وهذا طبيعي جدًا؛ حيث كان الشغل الشاغل هو الملك وترسيخ أركانه، خاصة -وكما رأينا- أن الأحداث كانت لا ينطفئ أوارها؛ فمن حرب إلى حرب، إلا عندما ذكرت عمرًا بعض المصادر مثل «العقد الفريد» الذي خلط بينه و بين أبيه.

٦- هذه السياقات التاريخية ندلل بها على ترابط الأحداث، و على عظم الملك الذي حازه المَلِك الحارث على محدودية البقعة الجغرافية آنذاك، على الرغم من ذلك كان الترابط قبليًّا نفعيًّا؛ فالتكالب بين الملوك على الملك كان فوق كل الاعتبارات، سواء كانت: مصاهرة، أم قرابة، أم قبلية؛ فالأنا كانت هي السائدة تهرق دونها الدماء.

---

(١) تاريخ الحضارات العام: ١/ ١٨.

٧ - البعد السياسي كانت انطلاقته المصلحة والمحدودية، إلا في نطاق العلاقة مع الفرس أو الرومان، فلقد كانت العلاقة أوسع نظرًا لمكانتهما السياسية والعسكرية آنذاك.

الفصل الثاني

العروس وأهلها

كانت العروس من بني شيبان، وبالتحديد من بني ذهل بن شيبان. «ومن ذهل بن شيبان: عوف بن محلم الذي يقال فيه: (لا حر بوادي عوف)»[(١)]. «وشيبان بن عوف بطن من زهير من حمير»[(٢)].

ويبدو أن نساء بني ذهل بن شيبان كنَّ مشهورات بالجمال وحسن التبعل.

«فالأسود بن المنذر بن النعمان، أمه ابنة عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان»[(٣)]. «وكان كليب سيد بني تغلب، وهو الذي قتله جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان متزوجًا بأخته جليلة بنت مرة»[(٤)].

«وكان لقيط بن زرارة بن عدس قد خطب ابنة ذي الجدين؛ وهو قيس بن مسعود الشيباني ... فبعث إليه قيس بن مسعود بابنته مع ولده بسطام بن قيس، فخرج لقيط يتلقَّاها في الطريق ومعه ابن عم له يقال له قراد، فقال لقيط:

هاجت عليك ديار الحي أشجانا ... واستقبلوا نوى الجيران قربانا
تامت فؤادك لم تقض التي وعدت ... إحدى نساء بني ذهل بن شيبانا
فانظر قراد هل في نظرة جزع ... عرض الشقائق هل بينت أضغانا
فيهن جارية نضح العبير بها ... تكسى ترائبها درًّا ومرجانا
كيف اهتديت ولا نجم ولا علم ... وكنت عندي نؤوم الليل وسنانا»[(٥)]

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٣٦٤.

(٢) معجم قبائل العرب، عمر رضا كحالة: ٤/ ٣٠٧.

(٣) تاريخ الأمم و الملوك، الطبري: ١/ ٣١٧.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٤٧ بتصرف.

(٥) العقد الفريد: ٦/ ٨٧ – ٨٨.

إضافة إلى ذلك فقد اتصفوا بالبطش والكبر؛ فها هو قريط بن أنيف من بلعنبر، يصفهم بعدما سلبوه إبله:

«لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

يقصد بذي لوثة: قومه حينما خذلوه فنصرته مازن»[1].

---

(١) المغني لابن هشام، ص٣٠، وانظر ديوان الحماسة لأبي تمام ص ٢٩.

المبحث الأول: الأب

نسب الأب عريق عريض؛ فتوارث الحكم والسيادة انتهبته بنو ذهل بن شيبان حينًا من الدهر، ولعل هذا ما جعل: (لا حرّ بوادي عوف) لفرط عزِّه.

«وفي حديث أبي بكر: فمنكم عوف الذي يقال فيه: لا حر بوادي عوف، وهو عوف بن محلم بن ذهل الشيباني، كان يقال له ذلك لشرفه وعزِّه، وإن من حلّ واديه من الناس كانوا له كالعبيد والخِوَل»[1].

«قال أبو عبيدة: جاء الإسلام وليس في العرب أحد أعزّ دارًا، ولا أمنع جارًا، ولا أكثر حليفًا من شيبان»[2]. وكانت لنساء بني شيبان فصاحة ندرت في غيرهنَّ.

و في مجال تعداد أعظم القبائل قال ابن خلدون: «وأوسعها وأكثرها شعوبًا: بنو شيبان، وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام شرقي دجلة في جهات الموصل... وسيدهم في الجاهلية مرّة بن ذهل بن شيبان؛ كان له أولاد عشرة نسلوا عشرة قبائل أشهرهم: همّام و جسّاس، وسادهما بعد أبيه...ومن بني شيبان هانئ بن مسعود الذي منع حلقة النعمان من أبرويز لمّا كانت وديعة عنده، وكان سبب ذلك يوم ذي قار، وهو هانئ بن مسعود بن عامر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان»[3].

فبنو شيبان بسبب وفاء زعيمهم هانئ بن مسعود للنعمان بن المنذر يقاتلون

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١١٧ مادة (ع - و - ف).

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١/ ٦٠٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٢/ ٣٥٠ بتصرف.

الفرس، ومن الفرس آنذاك؟!

موقعة ذي قار و دور بني شيبان فيها:

وكان سببها أن النعمان بن المنذر أرسل له كسرى طالبًا بعض النساء العربيات بينهن أخت النعمان، وفق صفات جمالية خاصّة، ممّا أوغر صدر النعمان واستهزأ بأمر كسرى وقال: أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطّى إلى العربيات[١].

«وكان النعمان قبل ذهابه إلى كسرى لجأ إلى قبيلة طيئ، وهو متزوج منهم، فأبوا عليه خوفًا من كسرى، ولم يقبله أحد من العرب حتى نزل في ذي قار في بني شيبان سرًّا، فلقي هانئ بن مسعود بن عامر بن عمرو الشيباني؛ كان سيدًا منيعًا... فأئتمنه على أربعمائة درع، وأودعه أهله وماله، ثم ذهب إلى كسرى فحبسه حتى مات بالطاعون. ومن المؤرخين من يروي أنه لما ذهب إلى كسرى رمى به تحت أرجل الفيلة»[٢]. وأرسل كسرى يستجمع ما ترك النعمان فأبى هانئ أن يرسلها، فغضب كسرى، وكان ذلك سببًا لواقعة ذي قار»[٣].

وحينما اشتدّ الوطيس قالت ابنة القرين الشيبانية:

لو ويها بني شيبان صفًا بعد صف إن تهزموا يصبّغوا فينا القلف»[٤]

هذه الفتاة تقوم بأشدّ الحملات الإعلامية الموجّهة؛ فاستخدمت أقوى

---

(١) مروج الذهب، المسعودي: ٢/١٠٠ .

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٠١.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١/ ٤٨٧ – ٤٨٨ بتصرف.

(٤) نفس المرجع السابق: ١/ ٤٩٠.

أساليب الإثارة والحض، فذكّرت الرجال أنهنَّ إن وقعن أسيرات انتهكت أعراضهن وضاع الشرف.

وذكرت ذلك في صورة مرعبة لا تترك ذرةً من مروءة أو رجولة إلا استثارتها في قومها، وأخذت تحثُّهم على الاستماتة دون الأعراض، ونجحت الفتاة في توجيه الرأي العام في بني قومها. «فقطع سبع مئة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف»[١].

ودارت الدائرة على الفرس، و أخذ بنو شيبان في النيل منهم، «فجالدوهم وبارز الهامرز فبرز إليه برد بن حارثة اليشكري فقتله برد، ثم حملت ميسرة بكر و ميمنتها، و خرج الكمين فشدُّوا على قلب الجيش، وفيهم إياس بن قبيصة الطائي، وولَّت إياد منهزمة»[٢].

وكانت قبيلة إياد على حلف مع الفرس، ولكنهم تمالؤوا عليهم وانحازوا إلى بكر و بني شيبان، واتفقوا على الانهزام والفرار وقت الحرب للفتِّ في عضد الفرس . «فانهزمت الفرس واتبعتهم بكر تقتل ولا تلتفت إلى سلب وغنيمة»[٣]. وانتصر العرب على الفرس في موقعة (ذي قار)، «وهكذا فتاريخ بني شيبان تملؤه المروءة والشجاعة، وفي هذا الموقف تجلَّى ذلك.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ١/ ٤٩٠.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نفس المرجع السابق.

عوف بن محلّم .. وثيقة تاريخية:

«ويضرب المثل بعز عوف بن محلّم الشيباني فقيل: **لا حُرَّ بوادي عوف**؛ قاله عمرو بن هند يخاطب عوف بن محلّم الشيباني لمّا أجار رجلًا كان يطلبه عمرو ابن هند»[١].

وعوف بن محلّم من أشراف العرب في الجاهلية؛ توفي نحو ٤٥ ق. هـ، وهو غير عوف بن محلم الخزاعي؛ فإن هذا إسلامي كان ينادم طاهر بن الحسين وابنه عبد الله، وفارقه بقصيدته المشهورة التي فيها:

إن الثمانين وبُلِّغْتُها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٢]

ولياقوت الحموي رواية في معجم البلدان؛ حيث روى أنه قدم أبو محلّم عوف بن محلّم الشيباني على عبد الله بن طاهر بن الحسين -أمير خراسان ومن أشهر الولاة في العصر العباسي- فحادثه فقال له فيما يقول: كم سنك؟ فلم يسمع، فلما أراد أن يقوم قال عبد الله للحاجب: خذ بيده، فلمَّا توارى عوف قال له الحاجب: إن الأمير سألك كم سنك فلم تجبه، فقال له: لم أسمع، ردّني إلى الأمير، فردَّه فوقف بين يديه فكان مما قاله له:

يا ابن الذي دان له المشرقان طرًّا وقد دان له المغربان

إن الثمانين وبُلِّغْتُها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فأمره بالانصراف إلى وطنه وقال له: جائزتك ورزقك يأتيك في كل عام فلا

(١) مجمع الأمثال، للميداني: ٢/٢٤٢.

(٢) الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: ١/ ٣٢٩.

تتعبنَّ بتكلُّف المجيء»[1].

وهذا خلط بين عوف بن محلم الشيباني وعوف بن محلم الخزاعي الذي عاصر طاهر بن الحسين وابنه عبد الله؛ فعوف بن محلم الشيباني «أحد أشراف العرب في الجاهلية، وصاحب الوفاء الذي ضرب فيه المثل: أوفي من عوف بن محلّم»[2]، وهو أحد المطاعين في قومه؛ كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ»[3]. وروي: «أن عوف بن محلّم حين رأى الملك الحارث بن عمرو قال: إنه ربي ورب الكعبة، وزوَّجه أمّ إياس بنت عوف»[4] وهو يقصد بقوله: «إنه ربي»: أي سيدي؛ فلئن كان عوف بن محلم الشيباني سيد قومه فسيادته تقع ضمن إطار ضيق محدود تحتويه سيادة الملك الحارث بن عمرو .

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٥/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) جمهرة وصايا العرب، ١/ ٦٦.

(٣) بلوغ الأرب، ص ١٧ - ١٩.

(٤) الحيوان: ١/ ٣٢٩، تحقيق عبد السلام هارون.

المبحث الثاني: الأم

أمامة بنت الحارث بن عوف الشيبانية، قيل: اسمها قرصافة، ويقال: هي البرصاء... وزوجها عوف بن محلم الشيباني؛ فصيحة من فصيحات العرب، لها وصية تعد من أفضل ما قيل في موضوعها؛ أوصت بها ابنتها لمّا تزوّجها ملك كندة الحارث بن عمرو. ولكن الثابت في الإصابة لابن حجر[١] أن البرصاء أم شبيب هي أمامة أخرى؛ كان الرسول ﷺ قد طلب من أبيها الزواج بها، فذكر أبوها أن بها علة، فلما عاد إليها وجدها برصاء[٢].

نظرة متأملة:

مما سبق نستخلص ما يلي:

١- عظم نسب العروس أبًا وأمًا؛ أرومة طابت منبتًا وفرعًا، فلم تكن العروس «خضراء الدمن».

٢- اشتهار الأم بالفصاحة؛ فلقد كانت نساء بني شيبان مشهورة بالفصاحة، فكان طبيعيًا أن تكرم ابنتها ليلة زفافها بهذه التحفة الأثرية النادرة.

٣- الذي أميل إليه أنها: «أم أناس»، وورود اسم: «أم إياس» هو تصحيف؛ فرواية «ابن الأثير» موضوعية، فهو ذكر سبب التسمية، في إطار سرده الظروف التاريخية المحيطة بذلك .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ١/ ٢٩٩.

(٢) تراجم أعلام النساء، ص ٣٣ – ٣٤ .

٤- نسب العروس كان مكافئًا لنسب الزوج، مما أوجد توازنًا عائليًا، وإلا لفشلت الزيجة.

٥-الأب يعتد به بوصفه وثيقة تاريخية [شهادة عمرو بن هند أنه: لا حُرَّ بوادي عوف. وعوف هذا هو جده؛ حيث إن هند أمه هي بنت الحارث زوج ابنة عوف بن محلم الشيباني].

إذن هذه الوصية ثابتة تاريخيًا ومؤكدة، وليست نسج الأدباء في العصور التالية، أو إبداع المتحلين.

حسن الاختيار:

أثبت الميداني في «مجمع الأمثال»: أنَّ الحارث بن عمرو ملك كندة، وقال: «...إنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني، وكمال عقلها، دعا امرأة من كندة يقال لها: «عصام»؛ ذات عقل وأدب وبيان ...»[1].

وهو بذلك يريد التحقق ممن يكون منها الولد؛ فالملك ليس فقط خبيرًا في أمور السياسة والحكم وقيادة جزء كبير من العرب، كما رأينا في وقت استحال فيه اجتماع العرب.

كما نرى حِرْصَ هذا الملك الشاب على حسن الاختيار؛ فأخذ ينقب عن شريكة حياة يجدد بها شبابه؛ فهي لم تكن الأولى، ورغم ذلك حرص على النسب الشريف، وعلى الصفات الذاتية منها -سواء أكانت خِلْقية أم خُلُقية- حتى لا يقع في شراك خضراء الدمن.

---

(١) فصيحات العرب و بليغاتهم في الجاهلية و الإسلام، عبد القادر فيّاض حرفوش، ص٢٤.

وقفة تحليلية:

لما ترامى إلى مسامع الحارث أخبار تصف جمال هـذه الفتـاة، لم يقـف عنـد السماع، بل أراد التحقق، فأرسل «عصام».

ولم يبهره الجمال فقط، بل أسره اتصافها بالكمال، وقوة عقلهـا، وهـي صـفة نادرة في النساء، والزوج الملك في مخيلته صفات خاصـة لمـن سـيتزوجها، فهـي وإن لم تكن ملكة معلنة، فهي تقوم بإعداد الملوك، وهم أبناؤهـا وأبنـاء زوجهـا من نسائه الأخريات.

مهمة استكشافية:

ولقد وطَّدت «عصام» علاقتها مع من ستكون مهمتها لـديهم -أمامـة وابنتها- فهي ذات لسان، وكان عملها بمثابة «مراسـلة» و«محـررة» في الوقـت ذاته، ولقد أحسنت المتابعة والتحليل ثم العـرض؛ فهـي ذات: (أدب وبيـان)، وسير القصة يبرهن على نجاح «عصام» فيما انتدبت إليه.

أحسنت «عصام» الاستهلال وبرعت فيـه، فـذهبت إلى الأم «**فأعلمتهـا مـا جاءت له**» فبدأت مهمتها بالمصارحة والمكاشفة، وأمر الـزواج أشـد مـا يكـون حاجة إليهما، فتفاعلت الأم معها مما، سهَّل مهمتها: «**أي بنية، هذه خالتك أتتـك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلـق، و ناطقيهـا إن استنطقتك**».

والملاحظ: أن الأم علَّقت النهي والأمر لابنتهـا بـإرادة «عـصام»: «**إن أرادت النظر، إن استنطقتك**»، وهذا يدل على مدى الترحيب وحسن الاسـتقبال لرسـول

الملك ووافده للتقصي عن حقائق ما سمع من أوصاف مبهرة «لأم أناس».

وفي رواية «جمهرة الأمثال»: «... فدخلت عليها، فإذا هي كأنها خاذل من الظباء، وحولها بنات كأنها شوادن الغزلان، فقالت لابنتها: إن هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ... »[1].

ثم يستكمل الميداني روايته: «فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قط مثله، فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع، فأرسلتها مثلًا، ثم انطلقت، فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قالت: صرح المخض عن الزبد، ...»[2].

«والمحض من كل شئ: الخالص، والمخض إذا استمخض اللبن لم يكد يخرج زبده، وهو من أطيب اللبن؛ لأن زبده استهلك فيه»[3]. «والمخض تحريك الممخض الذي فيه اللبن المخيض الذي قد أخذت زبدته»[4]. وزادت في «جمهرة الأمثال»: «أقول حقًا وأخبر صدقًا»، وهذا يتناسب مع مهمتها؛ فزواج الملك له ما بعده، لذلك بدأ تخطيطه بإرسال «عصام».

وها هي تبدأ تقريرها الشامل عن مهمتها بداية إخبارية برعت استهلالها ووثَّقَتْ مصادر خبرها، فوصفت قولها (حقًا)، وخبرها (صدقًا)؛ ﴿وَجِئْتُكَ

---

(١) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري: ١/ ٧٥٠.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني، ص١٣٩، مختارات تحقيق محمد على قاسم.

(٣) لسان العرب: ١٣/ ٣٧، مادة (م – ح – ض).

(٤) نفس المرجع السابق: ١٣/ ٤٧، مادة (م – خ – ض).

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

فلما طمأنت المتلقي بمصدر الخبر ألقته واثقة، وأخذت في وصف تفصيلي للجمال الباهر الذي رأته.

وقبل ذلك دخلت مدخلًا رائع البيان، وأصبح لروعته مثلًا يضرب عبر الأزمان والأجيال: (**ترك الخداع من كشف القناع**). وهذه قاعدة للعمل الإعلامي؛ فمعاينة الأحداث ومعايشتها يجلي الحقائق ويزيح السُّتر، فيزول الوهم ولا يكون مجال للخداع والزيف.

«عصام» عاينت رأي العين، ونقلت ما رأت، ووعت إخبار من كشف القناع عن الحقائق؛ فلا تورية ولا التباس، وأرست قاعدة أخرى إعلامية في تتبع الخبر بكل تفاصيله و جزئياته، والإحاطة به من كل جوانبه.

وفي الوصف الذي أعقب دخول «عصام» ثم خروجها بعد فحصها الأنثوي للعروس عجب، ولا أميل إلى أن هذا الوصف العام فيه مبالغة؛ لأنها كانت ذات خبرة حياتية، وعمرَّت طويلا -(**خالتك**)- وكانت (**ذات عقل ولسان وأدب وبيان**)، ثم هي انتقاء الملك الذي كان يسعى لتوسيع ملكه وترسيخ أطرافه وشد كيانه، فما أظنه كان لاهيًا عابثًا في دقة اختياره زوجه، وما أظنّه كان يميل إلى رأي «عصام» إلا لقناعات سابقة؛ أثبتت هذه المرأة نجاحها في مواقف فخبرها الملك وعرف قدراتها، فأسند إليها هذه المهمة.

المبحث الثالث: دقة اختيار الزوجة .. علم

من براعة «عصام» أنها استطاعت الاستحواذ على قلب وعقل الملك بإثارة شوقه لتلقي أنباء عن ابنة «عوف» و«أمامة»؛ وذلك عندما سألها: «ما وراءك يا عصام؟» يقصد الحارث: ما الخبر عندك عمّا أرسلتُك من أجله؟

و الخبر هو: «العلم بكنه المعلومات على حقائقها»(١). وهذا السؤال يحمل وهج قلب متشوق، وانشغال عقل متوقّد، فبرعت «عصام» عندما ضربت المثل بالحكمة الرائعة: «صرّح المخض عن الزبد». بسطت قولها مع الملك لأنه كان قد قال لها: «اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف»(٢). والذي دعاها للإطناب في كلامها مع الملك نشوتها عندما أفلحت في مهمَّتها التي أوكلت إليها، فعند ضربها المثل طوت في ثناياه كل ما رأت، ففتحت أبوابا للأسئلة الكامنة داخل نفس الملك: (كيف هي؟ هل هي جديرة بي؟...).

جمال يسمو به عقل:

أخذت «عصام» الدهشة والعجب من انبهارها بجمال ابنة عوف بن محلّم الشيباني، فكأنها انتابتها من نشوة جمالها سكرة أخذت عقلها برهة فخرجت تحدِّث نفسها. وهي لا تشعر: «**فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع**».

(وهي تقول) جملة حالية مصحوبة بجملة مقول القول، فهي حال خروجها

---

(١) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، ص ١٣٩.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢.

كانت تُردِّد دون وعي منها: «ترك الخداع من كشف القناع».

مهام عصام كانت ترتكز على ركيزتين أساسيتين:

١- كشف كمال و قوة عقل «أم أناس».

٢- معرفة أخلاقها وجمالها عيانًا ومعايشة.

أما الجمال فهي قد «وفَّت وصفه، ودقَّقت فيه وتتبعت جزئياته، ومن أراد الرجوع إليه فعليه بالمصادر في ذلك»[١]. وأما كمال وقوة عقلها ففي داخل تقرير «عصام» للملك الإشارة إلى ذلك عندما وصفت فمها: «وفيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحرِّكه عقلٌ وافرٌ وجوابٌ حاضرٌ»[٢].

عقل لبيب يدفع لسانًا ذا فصاحة:

وفي «مجمع الأمثال»: «تقلب فيها لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر»[٣].

ورواية «جمهرة الأمثال» أبلغ؛ حيث جعل اللسان لا يتحرَّك إلا بدافعية من عقل وافر التدبّر والتفكّر، ولا ينطلق اللسان ذاتيًا، ووصف العقل بأنه وافر وصف يكشف ذكاءها وتوقُّد ذهنها؛ فهي لبيبة ألمعية، وإن كان يلمح في رواية «مجمع الأمثال» في قولها: (بعقل وافر) أن «الباء» قد تكون سببية، ولكن يبقى مع ذلك رواية «جمهرة الأمثال» واضحة الدلالة على الحركية و الدافعية.

---

(١) مختارات من مجمع الأمثال، للميداني، ص ١٣٦.

(٢) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري: ١/ ٥٧٠.

(٣) مجمع الأمثال للميداني، ص١٣٩.

ويلاحظ أن «عصام» استغرقت وصفها التفاصيل، ودقَّة رسم العروس، وكأنها وضعت عينيها عليها فما رفعتهما عنها حتى ارتسم كلُّ شيء في مخيِّلتها التصويرية حتى تنقشه رسمًا مزخرفًا في لوحة رائعة، أو تنحته هيكلًا مرمريًا لهذه الفتاة. ولو عدت للوصف لوجدت أعجوبة في دقة رسمها الوصفي، وبراعة استخدامها اللفظي، ولكنَّها حينما تطرَّقت وصفا لعقل الفتاة أوجزت؛ لأن الملك في غنى عن هذا الاسترسال في وصف قدرتها العقلية وملكتها الفكرية؛ لأنه من وصف «عصام» أدرك رجاحة عقل الفتاة فانتقل إلى وصفها امرأةً، فهو هنا في حاجة إليها كزوج أكثر من كونه يحتاج ملكة، فالعرب في هذا الوقت كانوا يديرون الأمور والنساء في خدورهن مصونات إلا في مشاركات منضبطة، وحسب الحاجة والضرورة، فاهتمام الملك بكمال عقلها وجم أدبها حرص منه على إجادتها تربية أبنائه لأنهم ملوك أبناء ملوك.

لذا قال لعصام في البداية: «اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف»، وهنا يقصد خبرها، ولكنَّ الأمر لَمَّا كان مصيريًا، وله ما بعده، فالاختيار يجب أن يبدأ وفق أسس وقواعد وأسلوب خاصّ، وبناءً على ما سمع عن هذه الفتاة، وأنها ابنة عوف بن محلّم الشيباني الذي يقال فيه: «لا حُرَّ بوادي عوف»؛ لفرط عزِّه، كلّ هذا وما رأيناه من حكمة «عصام» وبراعة تنفيذها ما أسند إليها جدير بأن يُسمَّى (علمًا).

حسن اختيار الزوجة، ودقة ملاحظتها، وتحليل تصرُّفاتها، ومعرفة أصول نسبها، وإدراك طباعها، وإدراك نفسيتها وذوقها، ودرجة وعيها وذكائها، أليس هذا علمًا؟!

وفي وصف «عصام» بعد إحاطتها بعلم «ابنة عوف»: (ثمّ انطلقت) وصفية

لحركة عودتها كي تنبئ الملك بما رأت ووعت.

فلقد حملها على الانطلاق كشف حقيقة أروع من الخيال، لذلك لم تجد تعبيرًا عمَّا وجدت أفضل من وصفها التمثيلي لانجلاء الحقيقة وذهاب الوهم (ترك الخداع من كشف القناع)، ثم شرعت في وصف الفتاة التي بهرها جمالها، وآخذ فقط وصفًا لدلالته الخاصّة: «**رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزيّنها شعر حالك كأذناب الخيل**»[1].

وفي رواية أخرى: «**لقد رأيت وجهًا كالمرآة الصينية يزيّنه حالك كأذناب الخيل المضفّرة**»[2].

فشعر المرأة من أسرار جمالها، ولطالما تغنَّى به الشعراء، فشعر «أم أناس» شديد السواد مسترسل كأذناب الخيل، وهذا كناية عن اهتمام الفتاة بجمالها، وحسن قيامها بشؤون أنوثتها.

وفي الرواية الثانية وصفت الشعر وصفًا يبيّن هيئته؛ فهو مضفَّر صفَّفته ولفَّته لفًّا متداخلًا ممّا زاده روعة وجمالًا.

رمزية ذات دلالة: (المرأة والخيل):

و«عصام» وصفته وصفية رمزيّة ذات دلالة؛ جمعت بين المرأة والخيل وهما شرف العرب.

---

(١) فصيحات العرب و بليغاتهم في الجاهلية و الإسلام، ص٢٥.

(٢) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/٥٧٠.

الوصف العام واستقراء جزئيات الموصوف تبرهن على مدى اهتمام الواصف بمن أو ما وصف، ودقّة وصفية «عصام» للفتاة دليل إعجاب شديد بها.

لقطة حضارية: (ترف الملوك):

من الألفاظ والتراكيب «المرآة الصينية، وأسنان مثل الدر، وعنق أبيض كأنه إبريق فضّة، وصدر كغاثور اللجين، و يمنعانها من تقلّد سخابها، كطي القباطي، كمدهن العاج، كأنهما نصبتا على نضد عقيان»[1].

كلّ هذه الأوصاف توحي بأن «عصام» كانت ذات صلة بحياة الملوك وما فيها من رغد ورحابة. تناقل الناس وصف عقل وجمال ابنة عوف بن محلّم الشيباني.

مهرها و تجهيزها:

جاء في«العقد الفريد» أن ابن عباس بن خالد السهمي قال: «خطب عمرو ابن حجر إلى عوف بن محلّم الشياني ابنته «أم إياس»، فقال: نعم أزوّجها على أن أسمي بنيها وأزوّج بناتها. فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسمّيهم بأسمائنا وأسماء أبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحهن أكفاؤهن من الملوك، ولكني أصدقها عقارًا في كندة وأمنحها حاجات قومها؛ لا تردّ لأحد منهم حاجة، فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها»[2].

والذي ثبت من الروايات التاريخية أنه الحارث، وليس عمروًا. ثم وكأني بالأب رغم منزلته وعلو مكانته في قومه: (لا حر بوادي عوف)، ومع ما عرف

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/ ٥٧٠.

(٢) العقد الفريد: ٦/ ٨٦.

عنه وعن نسبه لا يريد أن يطامن من نفسه أمام الملك، ففرض شروطًا قبل زف ابنته إلى الملك، فظهر بمظهر المكافئ والند الذي يشترط ويأمر.

«وكانت كندة تئد البنات»[١]، والملك كانت له رغبة شديدة في الفتاة، فحصوله عليها نجاح كبير، مما أطمع أباها في أن يناله شيء من هذه المهور المبالغ فيها. «فبعث إليها من الصداق بمثل مهور نساء الملوك: مئة ألف دينار وألفًا من الإبل»[٢]. ووفَّى الملك بما وعد من عقار وحاجات قومها.

«وكانت كندة لا تزوج بناتها بأقل من مئة من الإبل، وربما أمهرت الواحدة منهن ألفًا منها، فصارت مهور كندة مثلًا في الغلاء»[٣].

«وقد ورد: (اللهم أذهب ملك غسان، وضع مهور كندة)، وهي مضرب المثل في الغلاء».[٤]

لباقة الحارث مع عوف بن محلم:

نلاحظ شرط الأب الغريب الذي لم يقبل به الحارث؛ فهو من لوازم الرجل الزوج الأب؛ فلا يسمي الأبناء إلا أبوهم وأعمامهم وأجدادهم، ولا يزوج البنات إلا هم أيضًا، ولكنني ألمح هنا أن أباها كان يقصد أن يصل إلى المحصلة التي حصلها: «أصدقها عقارًا في كندة، وأمنحها حاجات قومها؛ لا ترد لأحد

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ١٩٠.

(٢) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري: ١/ ٥٧١.

(٣) معجم قبائل العرب، عمر رضا كحالة: ٣/ ٩٩٩- ١٠٠٠.

(٤) عيون الأخبار: ٤/ ٣٥٨.

منهم حاجة»[١].

فأبوها رأس قومه، ويعلم أن الحارث سيأبى عرضه بالنسبة للتسمية، ولكنه اتخذ هذا العرض سبيلًا لما وصل إليه؛ فهو يريد أن يبرهن لقومه مدى رغبة الملك في ابنته، وأنه أكرمها وأهلها.

وأمر التزويج للبنات أظنه ذكاء منه حينما أخذ عهدًا بالإبقاء على البنات ضمنيًا، فلم يذكر ذلك بل عرَّض بتزويجهن لأن كندة مشهورة بوأد البنات.

«فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها، وبعث بصداقها فجهزت»[٢]. وفي رواية أخرى: «فحُمِلَت فسلمت إليه، فعظم موقعها منه، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن»[٣].

والفعل (سُلِّمت) يوحي بأن العروس أمانة أخذها صاحبها؛ فهي وديعة ردت لمالكها، وهذا فيه ما فيه من تبعة العناية والرعاية. وهذا كله يبرهن على أن المرأة عوان عند زوجها.

والأفعال ترسم الصورة بدقة: عروس تُقْبِل في موكبها، وهي داخل هودجها ظعينة، والركب أقرب منها، ويصحبها جهازها، والموكب يقطع الفيافي والقفار حتى بلغ الملك، فخرج في استقبال عروسه، ولم يكن قبل قد رآها عيانًا، ولكنه رآها صورة رسمتها «عصام»، وتمثالًا نحتته أعضاء حية،

---

(١) العقد الفريد: ٦/ ٨٦.

(٢) فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية والإسلام، عبد القادر فياض حرفوش، ص٢٥ و٢٦.

(٣) مختارات من مجمع الأمثال للميداني، محمد علي قاسم: ٢/ ٢٦٣.

فأقبل مبتهجًا، فما رآه أروع مما صور وتخيل، وتسلمها قرير العين ساكن النفس.

ولاحظ الترتيب التعقيبي بالفاء: (فحملت، فسلمت)، وقبلها: (فجهزت)، والعاقبة والمآل: (فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن).

تفاعلت الفتاة إيجابًا مع نصائح أمها، فوعتها وعملت بها، (فعظم موقعها منه): ملكت فؤاد الملك؛ فبعدما زاحمت نساءه الأخريات قلبه، امتد حبها في قلب زوجها الملك حتى ملك الشغاف، وولدت له الملوك السبعة، وهذا غاية مبتغى الملك.

سن العروس من دلالات الألفاظ:

في رواية «جمهرة الأمثال»: **«فدخلت عليها فإذا هي كأنها خاذل من الظباء، وحولها بنات كأنها شوادن الغزلان»**[(١)]. هذه الفتاة كانت صغيرة السن، فأترابها: (شوادن الغزلان)، «والشادن من أولاد الظباء: الذي قوى وطلع قرناه، واستغنى عن أمه... وظبية مشدونة: وهي العاتق من الجواري»[(٢)].

«وجارية عاتق: شابة... والعاتق: الجارية التي قد أدركت وبلغت فخدرت في بيت أهلها ولم تتزوج ... فإذا كانت الفتاة مع شوادن فلا ريب أنها في مثل سنهن، وتعبير المرأة: (وحولها بنات كأنها شوادن الغزلان) استخدمت فيه ضمير المفرد المؤنث (كأنها) وهو كناية عن جمع المؤنث (البنات) مما يوحي بأنهن أكثر من عشر بنات مماثلات لسنها. ووصفها بأنها (خاذل من الظباء)

---

(١) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري: ١/ ٥٧٠.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٥٨، مادة (ش – د – ن).

وصف يوحي بأن الفتاة كانت في مرحلة جديدة من حياتها؛ «فالخاذل هو تخلف الظبي عن القطيع كما قال الأصمعي»[١].

وفي الرواية التي قالت: إنك فارقت الحق ... تؤكد كلمة (الحق) صغر سنها؛ ففي لسان العرب: الحق: هو بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في أمرها ...وقال بعضهم: سميت الحقة لأنها استحقت أن يطرقها الفحل، وقال الأصمعي: «إذا جازت الناقة السنة ولم تلد قيل: قد جازت الحِق»[٢].

«والبدو يتزوجون صغارًا توافقًا وطبيعة أرضهم، ولرغبتهم في البنين؛ فالفتى يتزوج في الخامسة عشرة، والفتاة في العاشرة»[٣].

و عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لا تدخل المرأة على زوجها في أقل من عشر سنين، وقالت: وأدخلت على رسول الله ﷺ وأنا بنت تسع سنين»[٤].

وفي رواية محمد بن عمر، عن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: «سمعت عائشة تقول: «وكنت يوم دُخِلَ بي ابنة تسع سنين»، أخبرنا بمثله وكيع بن الجراح [٥].

وفي قول أمامة في رواية: (يا بنية أمك) ما يقطر حنانًا ويسكب ودًا، وهذا يدلل على صغر سن بنيتها، مما دعاها إلى مزيد من الحرص والتوتر الإيجابي.

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٥، مادة (خ – ذ – ل).

(٢) نفس المرجع: ٣/ ٢٦٠، مادة (ح – ق – ق).

(٣) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني، ص ٢٢.

(٤) عيون الأخبار: : ٤/ ٢٩٣.

(٥) موسوعة حياة الصحابيات، محمد سعيد مبيض، ص٥٢٠.

يتبين لنا أن الفتاة كانت في بداية تدرعها، وكانت عادة العرب إذا بلغت الفتاة المحيض دُرِّعت، ونظرًا لطبيعة الحياة الصحراوية الحارة كانت الفتاة تبلـغ بدايـة من الثامنة أو التاسعة، ولقد دخل النبي ﷺ بالـسيدة عائـشة –رضى الله عنهـا– وهي بنت تسع سنوات، ولم يكن هذا غريبًا، أو حتى خبرًا يقف الناس عنده .

مما سبق، أرجح أن سن الفتاة عند زواجها لم يتجاوز الثالثة عشر .

الباب الثاني

مدخل إلى الوصية

تمهيد:

جاءت هذه الوصية عفوية؛ انطلقت من قلب أم بدوية عربية بلا تكلف ولا إعنات فكر، فالوصية ملأتها أنفاس حرى، ومكانة الأم ونسبها وخبرتها في الحياة؛ كل هذا انعكس في وصاياها.

وكذلك بيئة الأم: «لما كان جل العرب في جاهليتها قبائل متبدية، لا يربطها قانون عام، ولا تضبطها حكومة منظمة، ومن شأن المعيشة البدوية شن الغارات لأوهى الأسباب، والمدافعة بالنفس عن الروح والعرض والمال، والمباهاة بقوة العصبية وكرم النجاد، وشرف الخصال، وللقول في ذلك أثر لا يقل عن الصول»[1].

لذلك خرجت الوصية جادة حرى؛ حيث لم يقيدها أي قيد، بل انطلقت انطلاقة الصحراء التي عاشت فيها؛ فلا خضوع إلا لعادات قومها، ولا ضابط إلا ما تعارفت عليه القبائل؛ فعرفها قانونها.

«أما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة، فتكسر حينئذ من سورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة»[2].

خرجت الوصية من قلب متفان مخلص، فحِكَم الأم أفرغتها وصاغتها تجارب السنين، وصقلتها الأحداث، فجاءت موجزة ذات دلالة، فسهل حفظها، وما انطوت عليه الوصية من خيرية نبضت بها الفطرة مما ساعد على خلود الوصية؛ «إن هذه

---

(١) جواهر الأدب ،أحمد إبراهيم مصطفي الهاشمي: ٢/ ٢٣٧.

(٢) تاريخ بن خلدون: ١/ ١٣٤.

الوصية في الحياة الاجتماعية للمرأة، في ذلك العصر، تنم عن فهم عقلية متطورة»[(١)].

وها هو عامر بن الظرب -حكيم العرب- حين خطب صعصعة بن معاوية ابنته عمرة (أم عامر بن صعصعة)، فقال: «يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي، فارحم ولدي قبلتك، أو رددتك، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك، أفِرُّ من السر إلى العلانية، يا معشر عدوان، خَرَجَتْ من بين أظهركم كريمتكم من غير رغبة و لا رهبة، أقسم لولا قسم الحظوظ على الجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به»[(٢)].

ننظر إلى بعض الدلالات اللفظية: (كبدي)، (ارحم ولدي)، (والزوج الصالح أب بعد أب)؛ تعابير لها دلالتها وفحواها .. حث على أن يكون كما يؤمل فيه، فهو إخبار لازمه: كن هكذا.

«وتزوج «لقيط بن زرارة» بابنة قيس بن مسعود الشيباني، فأرسلها أبوها مع أخيها إلى زوجها بعدما اتفقا على الزواج أمام قوم قيس بن مسعود الشيباني، فمرَّت مع أخيها على أبيها كي تودعه. فلما ودَّعته قال لها: يا بنية كوني له أمة يكن لك عبدًا، وليكن أطيب طيبك الماء»[(٣)].

وصية خاطفة تتناسب والوداع، والجديد أنها صدرت عن قلب أب، ووصيته احتوت أمرين: طاعة وطهارة. وهنا تتوارد الخواطر؛ فنفس الوصية قالتها الأم لابنتها.

---

(١) فصيحات العرب و بليغاتهم في الجاهلية و الإسلام، ص٢٧.

(٢) العقد الفريد: ٣/ ٨٦.

(٣) العقد الفريد: ٣/ ٨٨.

ومنبع الوصية البادية، «والبادية هي منبع الشعر، و هي التي تحرك العربي وتغذي خياله، وتُنْطِق لسانه؛ يشعر فيها باستقلاله وعظمته، لا ترهقه سلطة، ولا يقيده قانون»(١).

«فالسكون المخيم على الصحراء يملأ النفوس روعة، ويكسبها صفاء، لا شيء في الصحراء من صنع الإنسان ...هنالك يستولي على النفس الصافية حالة لا يفقهها ساكن المدن ...فأهل الصحراء أهل إقليم طليق، لايصد هواءه بناء، ولا يحجب شمسه غيم، ولا يحبس أمطاره وسيوله سد؛ كل شيء فيه حر على الفطرة، فهم كذلك أحرار كإقليمهم ...كذلك تحررت نفوسهم من قيود حكومة ونظام، اللهم إلا شيئين قيَّدا عقولهم ونفوسهم: قيد دينهم الوثني وما يتطلبه من شعائر وتكاليف، وقيد تقاليد القبيلة، وكانوا لها أشد إخلاصًا»(٢).

لذا جاءت الوصية «مطبوعة لا أثر فيها للصنعة، ولا تكلف، قريبة المأخذ، عفوية الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكد فكرك، ولا تتعب نفسك، وهذه صفة المطبوع»(٣).

---

(١) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص٢٢ بتصرف.

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص٤٦ بتصرف.

(٣) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٤٩.

الفصل الأول

الإبداع الفكري في الوصية

المبحث الأول: بناء الوعي

في بؤرة اللاشعور تحركت لدى الأم نوازع فطرتها، وبكل تلقائية أسهمت في «فتح دائرة الانغلاق لدى ابنتها -المقبلة على حياة جديدة- فالانغلاق يساهم مساهمة فعالة في تشكيل عقلية (البعد الواحد)»[١]. فأرادت الأم إزاحة السُتُر التي أحاطت بها ابنتها طيلة حياتها حفاظًا عليها.

وها هي قد وصلت بها بعد رحلة السنين، وآن لها أن تسلم ابنتها زمام أمرها، فتقود هي حياتها بذاتها، فأخذت توقظ في ابنتها حس المسؤولية، وتلقِّي التبعة، وتشعل فيها وهج «الوعي بالذات».بعدما أوقفتها عند «حدود ذاتها»؛ وذلك عن طريق إقامة جسور التواصل مع «القرين»؛ فالجهل بحقه، وعدم إدراك الطريقة المثلى للتعامل معه سوف يحرمها جزءًا من وعيها بذاتها، أو قد تفقد سعادة هذه الذات.

«إن النجاح مع الآخرين، أو الإخفاق معهم لن تدرك حجمه إلا من خلال الانفتاح على الآخرين انفتاحًا يمكننا من رؤية نافذة إلى جوهر ما هم عليه، ويمكننا من حل الأزمات الداخلية، فلا بد من استيعاب كل ما يجدُّ في العلاقات، وهذا ينمي الانسجام، ويديم أواصر الترابط»[٢]، ويكون سدًّا يمنع تسرُّب أي قطرة خلاف قد يزداد فتغرق فيه الأسرة .

وهذا ما حاولت الأم بناءه في عقلية ابنتها، لكن بلا فلسفة غامضة، ولا

---

(١) تجديد الوعي، د. عبد الكريم بكّار،ص ٢٢٦.

(٢) انظر نفس المرجع السابق، ص ٢٢٧ بتصرف.

استغراق منطقي، فلديها حس رهيف؛ فهي تدل باللمحة، وتفهم بالإشارة، وتعي بالنظرة، فجاءت فلسفتها فطرية.

«وأخطر ما في الانغلاق هو تشكيل العقل الخيالي، الذي يحمل الأفكار الخاطئة عن الواقع المعاش، مما يجعله ينهار عند احتكاكات الحياة الجادة مع من يعيشون خارج دائرته»[(١)]. «إن الانطلاق يولد الخبرة، والخبرة تولد الثقة بالنفس. والمنغلقون على ما لديهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا خائفين غرباء، والخوف والغربة من عوامل الاضمحلال»[(٢)].

وهذا كله وأكثر أرادته الأم بذكائها الفطري الصافي، لذلك تأثّرت الابنة بكلامها، «فمن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تُلقى للحفظ»[(٣)].

الاتصال بين الأم وابنتها وموضوعيته:

«أول أنواع الاتصال التي عرفها الإنسان هو الاتصال وجهًا لوجه، أو ما نسميه بالاتصال الشخصي»[(٤)]، «فأبسط صور الاتصال هي التي تتم بين فردين، ولذلك فالاتصال ليس إحساسًا أو شعورًا ذاتيًا، وإنما هو سلوك يقع خارج حدود ذواتنا»[(٥)].

---

(١) التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص ٢٢٨.

(٢) انظر نفس المرجع السابق، ص٢٢٨.

(٣) وحي القلم، الرافعي: ١/ ١٦.

(٤) التلفزيون ودوره في التنمية، د. عادل الصيرفي ويحيى بسيوني مصطفى، ص ٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢١.

فالاتصال يزيد المعلومات، وبالطبع تتغير و تتطور آلية التفكير و بناء الذات. والاتصال وسيلة للترابط والتماسك في المجتمع، «وعن طريق الاتصال يجني الإنسان كثيرًا من المكاسب والمعارف والتجارب التي تؤهله لتبوُّء مركزه اللائق به في مجتمعه»(١).

والأم تجهز ابنتها للذهاب لملك كندة، فهي بمثابة ملكة، ولذلك خَلَتْ بها قبل رحيلها، فكان الاتصال الشخصي بينهما، ولهذا «فإن الاتصال له تأثير بالغ على الأفكار وما يترتب عليها»(٢).

من هنا برزت أهمية هذه الخلوة بين الأم وابنتها ليلة زفافها، وهكذا يجب أن تكون الأمهات.

«فالاتصال فضلًا عما سبق، هو ظاهرة اجتماعية هامّة للجنس البشري، فهو يكرِّس سِمَتَيْن رئيسيتين في أي مجتمع ناجح، هما:

١ – العمل على زيادة القدرة من جانب الأفراد على التكيُّف الاجتماعي المتبادل.

٢ – العمل على زيادة درجة اندماج الأفراد في الجماعات»(٣).

وهذا ما نجحت الأم في إيصاله إلى ابنتها؛ فهي مقبلة على حياة جديدة لا بد من التكيُّف عليها، لتبادل التأثر والتأثير. فليس المطلوب محو شخصية الابنة، بل العمل على التكيُّف، ثم على هذه الابنة أن تندمج في القبيلة والجماعة

---

(١) التلفزيون ودوره في التنمية، د عادل الصيرفي ويحي بسيونى مصطفي، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢،٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣.

التي أصبحت أحد أفرادها، تحمل همهم و تفرح لفرحهم.

وعناصر عملية الاتصال هي:

١ – (المرسل) وهو هنا الملقى (الأم).

٢ – (المستقبل) وهو المتلقي (الابنة).

٣ – (الرسالة) وهي هنا (الوصية).

٤ – (الوسيلة) وهي هنا (الدلالات والإشارات والصور).

▪ – (التأثير) وهي الغاية التي أرادتها الأم من الفهم والإفهام. وكل هذا توفر في وصية الأم.

«وكان العرب ذوي حرية وعزة نفس وكرم، بل كانوا يعتبرون قرى الضيف قانونًا جامعًا لقوانين الإنسانية، ولذا كانوا يفخرون به مع السيف الكفيل بإثبات حقوقهم، والفصاحة المستعملة في فصل خصوماتهم التي لا تنهيها المحاربات»[١].

ولهذه الخصال التي جُبِلَ عليها العرب، وللطبيعة الخاصة التي أحاطت نشأة (أم أناس) أرادت الأم أن تكفكف من الغلواء التي نشأت عليها ابنتها؛ فهي ابنة من لا حُرَّ بواديه.

والوصية حفظت لنا اتصالًا مع الماضي، فها نحن نطلع ونتدارس صفحة من كتابه، فنظل أوفياء له أصلاء لامتداده، بارعين في النهل من معينه مع الابتكار والتجديد.

---

(١) خلاصة تاريخ العرب، سيديو، ص١٨.

«قال لازويل: الاتصال له ثلاث وظائف، بينها نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى الجيل الذي يليه»[1].

«وليس من شك أن الاتصال يتمّ به نقل تراث الأجداد إلى الأحفاد، ومن خلاله تحتفظ الأمة بشخصيتها، وتقوم بنقل مناقبها؛ وذلك بنقل التراث الثقافي إلى الأجيال، وبمراجعة هذا التراث نرى كيف انعكست فيها قيم المجتمع التي عززت شخصية الأمة»[2].

(١) الاتصال الجماهيري، صالح خليل أبو إصبع، ص٥٥.

(٢) نفس المرجع السابق بتصرف، ص٥٦.

المبحث الثاني: معرفة حدود الذات

«إذا أدرك المرء أبعاد ذاته فهو يتعامل من خلال ذلك الإدراك مع أي مشكلة أو موقف تعاملًا موضوعيًا؛ لأن الجهل بحدود الذات يؤدي إلى الكبر والغرور والتهور، ويؤدي إلى نكران الذات، وعدم الاستفادة من إمكاناتها المقدرة لها»[١]. وهذا ما حاولت الأم غرسه في ابنتها حينما قالت لها: «ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال... فكوني له أمة يكن لك عبدًا»، «واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ». حاولت الأم كسر موروث يعوق امتداد المستقبل نحو آفاق السعادة؛ ألا وهو موروث الآبائية، لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها، فعملت على:

نبذ الآبائية:

«كثيرًا ما يكون تراث الآباء سببًا في تعطيل العقل والاستفادة من خير جديد»[٢].

ذكَّرت الأم ابنتها بداية باستقلاليتها الجديدة، وأنها يجب أن تعبر جسر ماضيها العائلي الذي كان مسؤولًا عنها؛ فهي اليوم ستكون مسؤولة عن بيت جديد:

«أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلّفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا».

نلاحظ أن الوصية « منوال تنسج عليه ضروب النشاط الاجتماعي،

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص ٥٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٥٣.

وليست لونًا من الترف للمسرة والتسلية، والأم تريد أن تتحوَّل الأفكار إلى الأشياء متمثّلة في واقع الحياة»[1].

(١) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص ٦٦ بتصرف.

المبحث الثالث: الإقناع بالنقل الفعال للمعلومات

«وإن المعلومات التي لا نستطيع دمجها في مبادئ ونظم ونماذج عامة لا تجدد سوى جزء يسير من الوعي»[1]. ولذلك شرعت الأم في الحديث عن العموميات، والصورة الكلية للموضوع: «ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال». ويمكننا الإقناع بنقل المعلومات نقلًا تفعيليًا، منه ما يلي:

أولا :- التحدث عن التفاصيل، وربطها بالصورة الكلية للموضوع من حين لآخر:

وكان ذلك واضحًا في وحدة الموضوع، ومن مظاهر الربط والاتصال: استخدام الضمائر المكنى بها عن الزوج، ومن الجدير بالذكر ما ذكر ضمير الكناية عن الفتاة إلا حين أمرها أو تكليفها بفعل أونهيها و تحذيرها من شيء.

حقًا إن الأم أعطت زوج ابنتها مكانته، فهو بحق أسد العرين والسيد هو الزوج في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف:٢٥] «أي صادفا زوجها»[2].

زوجة بلغ بها منتهى الطاعة صورة الأمة في تخشُّعها، وبذلت جهدها ابتغاء مرضاة زوجها فأخذت صورة الأمة وما هي بأمة، إن هي إلا سيدة عزيزة عاقلة، وكانت تبعيتها لزوجها تبعية تستوجب عزة .. فقابل الزوج ذلك بمنتهى الشفقة والرحمة، فبلغ صورة العبد في لينه وسكونه.

والصورة من البلاغة بمكان؛ فالأصل: (كوني له كالأمة يكن لك كالعبد) ولكن المجاز أعلى منزلة وأسمى بيانًا، فمالت عن التشبيه الوضعي وجنحت إلي

---

(١) تجديد الوعي، عبد الكريم بكار، ص٢٧٤.

(٢) تفسير أبو سعود: ٤/ ٢٦٧.

أول درجات الاستعارة (التشبيه البليغ)؛ حيث إنه ادعاء أن المشبه به هـو ذاتـه المشبه، فجاء خبرًا عنه فهو أبلغ في الدلالة على وضوح الحـال، وأبـين كـمالًا في رسم الصورة: «كوني له أمة يكن لك عبدًا» .

فالمعادلة :

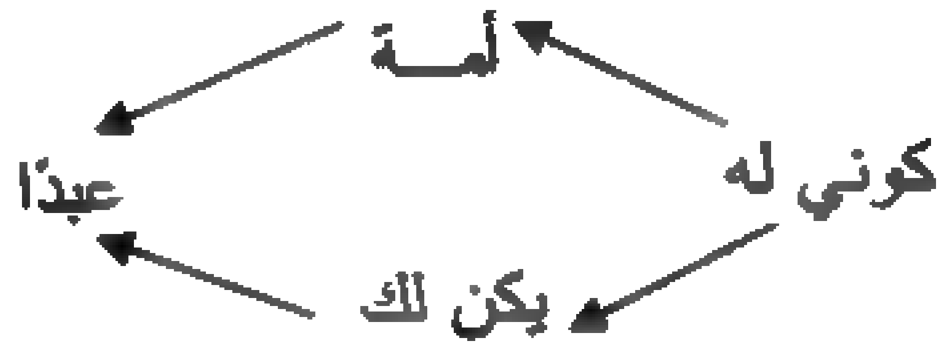

- لما كانت له – كان لها .
- لما بادرت (أمة) لباها (عبدًا)
- القمة (أمة – عبدًا)

استخدمت الأم التعبير بالأدنى ولم تقل: (كوني له سـيدة يكـن لـك سـيدًا كفؤا) لسببين:

١ – أن ابنتها ابنة «عوف بن محلم الشيباني» سيد قومه، والزوج ملك كنـدة، فهما ليسا بحاجة إلى ما يُعلي قدرهما.

٢ – أن الأم ذكرت ابنتها بأن ما يؤثر الرجل هو لين جانب زوجـه، ولـيس ندِّيتها له؛ فالزوجة أخلت ساحة السيادة للرجل، هنا تجري الأمـور سـوية، لا يشعر بمن يزاحمه بل يشعر بالوحشة ويشعر بحاجته إلى من تؤنـسه وتمـلأ قلبـه حبًا فيتحقق: (كنت له أمة فأصبح لي عبدًا). و(يكن) من جهة الـزوج تـضمين أو علاقـة تلازميـة، وفي إطارهـا العـام (تفاعـل واسـتجابة)، أو سـببية (مجـاز مرسل)؛ فالشيء يستدعي نظيره.

ثانيًا: استخدام الترقيم في سرد ما تريد توصيله للآخرين من معلومات:

ففي رواية «العقد الفريد» جاءت الوصايا مرقمة مزدوجة: (الأولى والثانية)، و(الثالثة والرابعة)، وهكذا...

فالتسلسل المرقم يوحي ببرمجة فكرية، وأن الأمر لم يكن مجرد خواطر سانحة، فالوصية ليست مجرد انطباعات إنشائية تلقي الكلام على عواهنه، بل هي أفكار دفعها عقل بعدما برمجها ورتَّبها وصاغها .

ثالثا: استخدام أقل عدد ممكن من الكلمات المعبرة الموجزة:

جاءت الوصية عبارة عن رسائل سريعة خاطفة وكأنها تعليمات تنفَّذ، وتوقيعات تلقى للحفظ، والمقام يقتضي ذلك.

رابعًا: استخدام المقارنة والتشبيه:

كثيرًا ما استحضرت الأم المقابلة لتوضيح الصورة لابنتها، وليكتمل رسمها للأمر؛ فاستخدمت التقابل لتبرهن على أن بديل حسن الطاعة سيئ، وعاقبته وخيمة، لتحذر ابنتها مغبة تغليب هواها على هوى زوجها، وعدم طاعته في السراء والضراء، وكذلك استخدمت الاستعارة، وهي أعلى بيانًا من التشبيه؛ وذلك لترسيخ جدية الأمر، وخطورة عدم أخذه بما هو أهله.

المبحث الرابع: بناء منهجية في التفكير

أرادت الأم أن تسنَّ لابنتها دستور حياتها، فأخذت في وضع لبنات صرح سعادتها المستقبلية، وأول هذه اللبنات: إزالة التعصب لقبيلتها؛ فالتربية المتوارثة تغذي الانتماء القبلي، فلا مجد ولا شرف إلا للقبيلة.

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت و إن ترشد غزية أرشد

«وحين تمتد هذه التربية عبر الأجيال فإنها تورث مرضًا خطيرًا وهو: التركيب العقلي الأحادي الذي يكون عاجزًا عن الاستفادة من أكداس المعلومات المتاحة له، بل قد يمتص منها ما يغذي نفسيته و يسوغ له أفعاله وأفكاره، مما يزيد تعصبه الأعمى»[1].

وهذا ما دفع الأم للتعريض بخطورة استمرارية الانتماء القبلي القديم، وبيَّنت أنها مرحلة يجب تجاوزها في إطار النظرة المستقبلية الواقعية. «فالتكيُّف المتوازن يتطلب نوعًا من التجاوز عن بعض المفاهيم والآليات القديمة التي ليس لها سوى قيمة وفعالية زمنية»[2].

«أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي فيه درجت».

(١) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص١٨٧.

(٢) تجديد الوعي، د. عبد الكريم بكّار، ص٢١١.

المبحث الخامس: الواقعية

وهي ركيزة هامة من ركائز الموضوعية، إذ كثيرًا ما نقع أسرى حركة ترددية بين الماضي بمُثُلِه وقيمه وخبراته، وبين المستقبل بآماله وخططه ومشاريعه؛ متجاوزين الواقع وظروفه وضروراته؛ أي نعيش لحظتين لا نملك واحدة منهما. فالأم أخذت تطرق الفطرة طرقًا استدلاليًا حتى تخرجها عن الطوق «**ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال**».

ومن مظاهر الواقعية[1]:

١ - الانشغال بالواقع:

وهذا ما قامت به الأم، فأخذت تطوف بمخيلة ابنتها نحوه: «**الصحبة بالقناعة و المعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه...**».

٢ - تقدير العوارض وحسن التعامل معها (مهارة التوقع):

«**وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت**».

«وهي في كل ذلك تضع التفاصيل لكل قسم، والأسباب الموجبة له؛ إذ لعل ابنتها لا تدرك معنى من المعاني التي ذهبت إليه الأم، لأن تجربة البنت في

(١) تجديد الوعي، ص ١٤٠.

الحياة محدودة لم تصل إلى غاية الإدراك بعد»[1].

«ثم تخرج الأم عن دائرة الوصايا لتختم بتحذير من مغبة أمر يكون معه الفراق الأبدي، فتحذّرها من الأمور التي تفكك عرى الألفة والوفاق بين الطرفين، فتصل إلى ما لا تحمد عقباه»[2].

(١) جمهرة أمثال العرب: ١/ ٦٧، ٦٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٨.

المبحث السادس: الاستدعاء الانطلاقي

وإنما أقصد به استدعاء الكم المعلوماتي، واستحضار التجارب والاستفادة منها عمليًا استفادة انطلاقية؛ ينطلق بها صاحبها نحو التطور والرقي.

«فطبيعة اشتغال الذهن بالمعلومات الواردة إليه تسبِّب له بعض الأضرار والمؤثرات السلبية في منطقيته وطلاقته»(١). والمعلومات التي لا نستطيع دمجها في مبادئ و نظم ونماذج عامة تقل الفائدة منها؛ فهي لا تجدِّد سوى جزء يسير من الوعي، ولكنها: (تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل).

وكثافة المعلومات وتدافقها قد يوقف الإبداع ويحول دون الاستفادة من هذا الكم إن لم يبرع في توظيفه، وكثيرًا ما يُربِّي تابعًا مقلدًا، وهذا قصور في منهج التفكير، «والشيء قد يموت بصورة ما إذا قطع عن وسطه الثقافي المعتاد؛ إذ إن لغته خارج هذا الإطار تفقد معناها»(٢).

أرادت الأم لابنتها ألا تكون أسيرة القصور الذاتي، فترهقها تبعات قصورها الإدراكي لطبيعة الحياة الجديدة، فتلهث خلف الحلول لما ترتب على هذا القصور، وتكون دائرة إنتاجها العقلي هي وضع الحلول المبتسرة، أو ردود الأفعال.

فعلَّمتها الأم:

فن القيادة وسر السيادة: (كوني له أمة يكن لك عبدًا)، (ولا تفشي له سرًّا ولا تعصي له أمرًا)، (وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا).

---

(١) تجديد الوعي. د. عبد الكريم بكار، ص٤٨.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي. ص ٥٤.

والاحتفاظ: (والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله).

وحسن التوقع: (وأشد ما تكونين له موافقة، يكن لك أطول ما تكونين له مرافقة).

والاستشراف المستقبلي: (واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت).

كل هذا ذخيرة كما قالت الأم في بداية وصيتها: (احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا)؛ تستدعيها ابنتها وقتما لزم الأمر.

«فالأم أعطت ابنتها درسًا هو عصارة حياتها، ورسمت لها طريقها الصحيح»[١].

---

(١) فصيحات العرب و بليغاتهم في الجاهلية و الإسلام، عبد القادر فياض حرفوش، ص٢٧.

الفصل الثاني

الأم تهيئ ابنتها نفسيا

تلمَّست الأم الوقت المناسب لإسداء النصيحة، فاقتنصت الفرصة السانحة: استجمعت الأم قلبها، وألجمت عاطفتها بنور عقلها فتوهَّجتْ نصيحتها ضياءً، وامتد عطاؤها عبر الأجيال والأزمان، في ليلة تطلق الأمهات العنان لعواطفهن ويسترسلن بكاء؛ فلقد استقلَّت الابنة، وخرجت من البيت الذي ملأته أُنسًا، تترك الأم فارغة الفؤاد.

لكن «أمامة» طراز آخر؛ وجَّهت عاطفتها الحرى، وأفرغتها حكمًا تسديها لابنتها، فخرجت حكمًا واعية خلَّدها التاريخ، «وجماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض»[1]، وهذا ما فعلته الأم.

فالأم تعلم الرهبة النفسية التي تكون لدى كل فتاة هذه الليلة؛ فهي قد مرَّت بتلك الأحاسيس قبلًا.

وها هي تسكب السكينة على ابنتها حنانًا وتلطفًا وإيناسًا. فلقد برعت الأم في استهلال نصيحتها: (**أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك**).

عنصر التشويق كان رائعًا من الأم؛ فعليه تقوم الرسالة ويصاغ الخبر؛ «فخير الكلام ما شوَّق أولُه إلى سماع آخره»[2]

ومما برعت فيه الأم: استخدام لفظة (بنية)، و(يا بنية أمك)، «وبعض كلمات اللغة لها معنى عاطفي وجداني، إضافة إلى معناها الدلالي الأساسي،

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: ١/ ٧٨.

(٢) الاتصال الجماهيري، ص ٨٧.

ومن أمثلة الكلمات الغنية بالمعنى الوجداني أو المعنى النفسي: أم، ابنة. وكل كلمة من هذه الكلمات لها معنى أساسي مصحوب بشحنة غنية من العواطف، ...والأم أساسًا هي الوالدة »[١] وهي أيضًا رمز العطاء والفداء.

والأم هنا استخدمت (بنية) مسبوقة بالنداء أو مقدرة النداء، أو(يا بنية أمك)؛ ففي علم الدلالة: الاهتمام بالمؤثرات الخارجية مما يوضح المعنى ويزيد في تفهيمه واستجلائه.

«فأدوار المخاطبين تقوم على العلاقة بين المتكلم والسامع؛ تؤثر في معاني الجمل المتبادلة بينها، والعلاقة السابقة هي علاقة ودية».

وبدأت الأم «بإظهار ما الحسن فيه أوضح، وما النفس بتقديمه أعنى»[٢]. فابنتها متوترة قلقة كأي فتاة ليلة زفافها، فأتقنت الأم زرع الثقة ثم -ومن حيث لا تشعر ابنتها- استأنستها إلى الإصغاء لوصاياها؛ لأنها منحتها الرضا، وأشبعت نفسيتها ثناء وثقة، فزال عنها توترها.

«فالشخص الذي يستشعر الإحباط يشعر بعدم الرضا، ويكون في حالة من عدم التوازن، ولذلك كان لا بد من شيء من التكيُّف لتخفيف التوتر»[٣]، وتمكينها من تقبل الوضع الجديد والتجاوب معه.

«أرادت الأم أن تزيل عنها غربة الدار، وأن توجد الألفة بينها وبين قرينها،

---

(١) علم المعنى (الدلالة)، د. محمد على الخولي، ص ٧١ – ٧٢ بتصرف.

(٢) منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص ١٠١.

(٣) أصول علم النفس و تطبيقاته، د. فاخر عاقل، ص ١١٦.

فأمرتها أن تتحلَّى بهذا الخلق، وتتَّبع هذه الوصايا»[1]. ونجحت الأم في التوصل إلى حصول الغرض من المخاطب (ابنتها)، والملاطفة (لها) في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا تشعر به. ويلاحظ تدرُّج الأم في إفراغها خبيئ قلبها لابنتها حبًّا وتربية، ودروسًا في واقعية الحياة؛ فما أفرغت ما عندها جرعة واحدة، ولكنها تدرجت وتسلسلت تسلسلًا مركزًا، وعلى جرعات حتى تحفظ ابنتها ما تلقيه أمها وتعيه؛ فالتدرج والتسلسل المُركَّز يقي الذاكرة النسيان ويحفظ للذهن توقده عند الاستدعاء المعلوماتي، والمتلقي أكثر استعدادًا لتلقي الرسالة على جرعات.

وعملت الأم على ألا يفلت زمام قلب ابنتها المتهدج منها، فاستخدمت الاستمالات العاطفية. (أي بنية). وفي رواية «مجمع الأمثال»: (يا بنية أمك)؛ في هذا التركيب ما فيه من روعة حنان وعاطفة جيّاشة. «فالوصول إلى قلب المتلقي هدف من أهداف توصيل الرسالة»، وقيل البلاغة هي: «إهداء المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة من المعنى»[2]، وقيل أيضًا إنها: «تُنهِي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه»[3].

ولا شك أن استخدام الاستمالات العاطفية هو واحد من التكتيكات المتبعة في الاتصال حاليًا؛ إذ توصَّل «ماينفي» و«جرينبرج» في دراسة لهما حول تأثير الدعاية العاطفية، وكذلك توصَّل «هارتمان» إلى أن: الاستمالات العاطفية في

---

(١) الوصايا في الأدب العربي، د. سهام الفريح، ص ٣٨.

(٢) السابق، ص٨٦.

(٣) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص ٦.

الدعاية تفوق الحجج المنطقية»[١].

وفي صحيفة «بشر بن المعتمر» وصايا هامة للتأثر والتأثير، منها:

١ – اختيار اللحظة المناسبة نفسيًا لدى المستمع لتبليغ الرسالة، وهذا ما قامت به الأم مع ابنتها.

٢ – البعد عن التعقيد؛ لأنه يستهلك المعاني ويجهد الذهن، لذلك جاءت الوصية سهلة الألفاظ واضحة المعاني؛ لأن هدفها كان بناء الوعي وإيجاد شخصية جديدة تتناسب والمرحلة الحياتية الجديدة، فالألفاظ متناسبة معبرة.

٣ – عملية الاتصال التي قامت بها الأم توافق فيها الحال مع المقال، فحققت الرسالة هدفها.

٤ – علاقة المتصل (الأم) بالمستقبل (الابنة) كانت على مستو راقٍ، مما أنجح عملية الاتصال.

«وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلامًا، ولكل حال مقامًا حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، ومقامات المستمعين على أقدار الحالات»[٢].

---

(١) الاتصال الجماهيري، صالح خليل أبو الإصبع، ص٨٦.

(٢) الصناعتين، ص ١٣٥.

الباب الثالث

تفاصيل الوصية وتحليلها

الفصل الأول

تحليل الوصية

الأم وفق معايير علم النفس ذات شخصية (ودودة محللة)؛ ظهرت هاتان الصفتان جليتين في وصيتها؛ ففي النداء (أي بنية) إشعار بالأنس والألفة، «فالإيناس قبل الإبساس».[١]

قال الشاعر:

أجارتنا إن التعفف باليأس وصبرًا على استدرار دنيا بإبساس»[٢]

«والتصغير فيه تحبيب وتقريب وشفقة»[٣]؛ أم تسكب حنانها جرعات متتابعة متلاحقة، تلاحق أنفاسها الحرى، فأتقنت الإلقاء، ومن ذلك تغيير طبقات الصوت؛ فرخاوة الصوت واستخدام النداء مع التصغير إنما القصد منه احتواء مشاعر الابنة مبعثرة الفؤاد. فظللت الأم الموقف بنبرة المحبة و الشفقة.

ففي رواية «مجمع الأمثال»: (يا بنية أمك)؛ نشعر أن هذا التركيب يوحي بأن الفتاة ملكت شغاف قلب أمها. والإضافة الوصفية الخاصة أوحت بذلك.

ونبرة الوصية في مطلعها هادئة، لكنها ارتفعت في النهاية عندما أرادت إشعار ابنتها بخطورة المستقبل إن هي لم تتبع وصايا الأم، وآثرت هواها على هوى زوجها، ولوّحت الأم معرِّضة أن نهاية عدم الطاعة، وفقدان (كوني له أمة يكن لك عبدًا) هي الفراق.

(أي بنية): تشعرنا باتحاد روحي ووجداني بين الأم وابنتها؛ نجحت الأم

---

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/ ١٩٦ .

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محود شاكر، ص ٣٢٥.

(٣) روح المعاني للألوسي: ١١/ ٨٤.

بهذا النداء في مد أول وأهم جسر للاتصال بينها وبين ابنتها؛ حيث إن الاستمالة العاطفية هي واحدة من الوسائل المتبعة للاتصال، وهي تفوق الحجج المنطقية لذلك.

هذه الافتتاحية لها مغزاها النفسي، وهذا التركيز العاطفي أشعر الابنة بتخوف الأم عليها. فنشعر وكأنها ارتمت في أحضان الأم، فظلتا هكذا حينًا من الوقت، يتبادلان سكب العواطف بينهما، والاثنتان تبكيان، ويرتفع منهما النشيج، ولم يبتعدا إلا خشية انفطار قلوبهما.

(أي بنية) في النداء إشعار الابنة أنها مازالت بحاجة إلى دروس أمها.

«فأصل (الابن) التأليف والاتصال؛ من قولك: بنيته، وهو (مبني)، وأصله: (بنى)، وقيل: (بنو)، ولهذا جمع على (أبناء)، فكان بين الأب والابن تأليف»[(١)].

(أي بنية): هذا النداء بجرسه وظلاله أزال ركام الخوف والقلق، وكأن الأم أزالت هذا الحمل الثقيل عن كاهل ابنتها لتضع بدلًا عنه حمل الأمانة: (احملي عني عشر خصال).

علا كلام الأم في نفسه، فكان له من الوقع في قلب ابنتها ما كان، وتمكّن من نفسها. «وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج»[(٢)].

---

(١) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، ص٥٠٩، ٥١٠.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، ص٣٤٥.

في رواية «مجمع الأمثال»: (**إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك**)[١] فضل أدب؛ فضل: «مصدر بمعنى الفضلة والزيادة، والعرب تقول لبقية الماء في المزادة فضلة، ولبقية الشراب في الإناء فضلة»[٢].

وفي رواية «المعمرون»، لأبي حاتم السجستاني، جاء: (**إن الوصية لو تركت لعقل وأدب، أو مكرمة في حسب لتركت لذلك منك، ولزويته**[٣] **عنك**). بعد النداء وتهيُّؤ الفتاة، أخبرتها أمها الخبر، ولأهميته أكدته، وعنونت مقالتها: (الوصية)، ثم نسجت بدلالة ألفاظها نسجًا رقيقًا لا يجرح أحاسيس ابنتها المرهفة.

واستخدام الأم للجملة الشرطية استدلالًا على استغناء ابنتها عن مزيد أدب لبلوغها الدرجة القصوى منه ونيلها القسط الأوفر؛ «لو حرف يقتضي في الماضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه، ووجود الملزوم يوجب وجود اللازم»[٤] «ولو انتفى الملزوم انتفي اللازم، و(لو) تدل على عقد السببية والمسببية»[٥].

(**إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك**): امتنعت الأم عن ترك الوصية، وقيَّدت الترك بعلة: (**لفضل أدب**)؛ فهو موجود لدى ابنتها، وكان يستلزم وجود هذا الأدب ترك الوصية، ولكنها ساقت الوصية لمأرب آخر؛ وهو: (**ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل**)؛ استخدمت الاستدراك: (لكنها)،

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢.

(٢) لسان العرب: ١٠/ ٢٨١.

(٣) الضمير للمذكر في (لزويته) يعود على الإيصاء المفهوم من الوصية.

(٤) المغنى لابن هشام، ص ٣٤٧.

(٥) نفس المرجع، ص٣٤٠.

وساقت علته: (تذكرة للغافل ومعونة للعاقل).

(لو): هنا دلَّت على عقد السببية والمسببية؛ فلو كان سبب سياقة الوصية لترسيخ الأدب لما احتاجت الابنة إليها لاستغنائها عنه؛ فهي ما لجأت للوصية لحاجة، ولكن المسبب هو:(تذكرة) و(معونة)؛ فهنا مفهوم الموافقة واضح جلي، والغالب على المثبت دخول اللام، وهنا حذفت اللام، فجاء الفعل ماضيًا لم يسم فاعله للدلالة على الامتثال، ومجيء الفعل في سياق التنفيذ والإقرار يؤكد ذلك. وقولها: (تركت لذلك منك): ذكرت حيثية الترك: (لذلك منك)؛ أي لوجوده على أكمل صورة.

وفي قولها: (لذلك منك) متعلق محذوف لموقع ذلك منك، فالجار والمجرور (منك) يدل على سمو التربية، وأشعرت (باستفهام تفضيلي) وكأنها قالت: (وأين ذلك منك؟) لكماله فيها، وكأنها تجاوزته رفعة وأدبًا.

وتكرر الجار والضمير: (لذلك)، (منك) لإبراز كمال خُلُقِها واستغنائها عن الوصية. وفي قول الأم: (إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك) تلميح بالحث على المداومة والثبات على ما تحلَّت به، ولكي ترتقي وتسمو بحسن أخلاقها مدارج العلا.

مكانة العقل في الوصية:

وفي رواية: (**إن الوصية لو تركت لعقل وأدب، ومكرمة في حسب، لتركت لذلك منك، ولزويته عنك**).

هذه الرواية تبرز مكانة العقل، الذي تفخر الأم باكتماله عند ابنتها، «فعقول

الناس على قدر زمانهم»[١].

«قال عمرو بن العاص: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين»[٢].

«قال معاوية لعمرو: ما بلغ من دهائك يا عمرو؟ قال عمرو: لم أدخل في أمر قط فكرهته إلا خرجت منه، قال معاوية: لكني لم أدخل في أمر قط فأردت الخروج منه»[٣]، «كل شيء محتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجارب»[٤]. وقد رأى ابن الجوزي أنه: «يستدل على عقل العاقل بسكوته، وسكونه، وخفض بصره، وحركاته في أماكنها اللائقة بها».[٥]

كل المعاني المذكورة سابقًا هي خبرة حياة؛ فالأم هنا تلوح لابنتها أهمية عرض الأمور على العقل، وأهمية الإدراك؛ «فليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع، ولكنه الذي يحتال للأمر ألا يقع فيه»[٦]. والأم تفسح مساحة الذاتية لابنتها، ومنحتها مزيدًا من الثقة باستيعابها للأمور حتى تكون انطلاقتها ذاتية، «امرأة أعرابية توصي ولدًا لها يريد سفرًا وهي تقول: أي بني، أمنحك وصيتي

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٢٢.

(٢) نفس المرجع، ١/ ٣٢٢.

(٣) نفس المرجع، ١/ ٣٣٤.

(٤) نفس المرجع، ١/ ٣٣٤.

(٥) الأذكياء لابن الجوزي، ص١٤ .

(٦) عيون الأخبار: ١/ ٣٢٢.

وبالله توفيقك؛ فإن الوصية أجدى عليك من كثير من عقلك»[١].

وكانت الأم تحسن التغلغل بحسن حديثها داخل نفسية ابنتها، ولم تشعرها بوثب مفاجئ أثناء وصيتها، ورسمت الأم رؤية شاملة؛ فالرؤية الكلية عبارة عن محاولات لرؤية الشيء في أبعاده المختلفة، وعلى مستويات عدة، وأحوال متباينة (ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل).

تضع الأم آلية تحريك الكم المعلوماتي المخزون واستدعائه، وهو استدراك تزكية، وهنا تناسب بين دلالات الألفاظ ومقتضيات السياق المعنوي: (تذكرة)، و(معونة).

(التذكرة): تعلم وتجديد؛ وذلك بذكر الأطر العامة فقط، ولذلك اقترنت (بالغافل) فهي مقيدة به، وهو غير المنتبه الساهي عن الأطر العامة فضلًا عن التفصيلات.

ثم (معونة) استبقاء واستحضار التفاصيل، واستثمار هذا المخزون؛ «فاستخدام أسلوب التغذية الاسترجاعية الموضوعية لتحسين مهارات التكيف مع الآخرين»[٢] وهذا مسعى الأم.

وفي رواية: (ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل)، هنا جاءت التذكرة للعاقل، فتكون بمعنى الإيقاظ وتحريك الكم المعلوماتي، ووضع الأطر العامة موضع التنفيذ، فهي قريبة من (معونة للعاقل)، ولكن (معونة للعاقل) أقوى

---

(١) فصيحات العرب وبليغاتهم، عبد القادر فياض حرفوش، ص ١٠.

(٢) تحمل المسؤولية، الآن د ويليام كناوس.

دلالة، وأرسخ تركيزًا.

وتبقى (تذكرة للغافل) هي (منبهة للغافل)، غفل: تركه وسها عنه... وعديم التجربة.

وهنا مجاز مرسل في (تذكرة للغافل ومعونة للعاقل)؛ فالوصية سبب في التذكر، وسبب في العون، فالعلاقة مسببية من جهة التذكرة والمعونة، وقولها (للغافل)، (للعاقل) فيه تخصيص وقصر، «واللام هي لام الاستحقاق»[1]، واللام تشعر أيضًا بأن الوصية كالكنز وعلى الغافل أن يتفاعل مع معطياته، وكذلك العاقل؛ فالإيجابية الذاتية، وقوة الدافعية هي التي تجلب الفائدة، أما الشيء بذاته فلا فائدة له.

(ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه): استدلال منطقي ثان، تبرهن به الأم لابنتها صدق دعواها، التي ما أنكرتها الفتاة، ولكن الأم تجذب ابنتها داخل الإطار القبلي، ثم تعود بها نحو المرجعية التاريخية، وتطوف بها داخل الآواصر العائلية، وهي إحدى لبنات هذا البناء المتين، (شدة حاجتهما إليها)، وجملة: **(لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها)** جملة حيثية تعليلية للاستغناء جدلًا.

(ولو أن امرأة استغنت...): التنكير في (امرأة) للإفراد، لبيان استحالة وجود هذه الفرضية، والتي إن وجدت جدلًا لكنت أنت هذه المرأة المستغنية عن الزوج، ولكن الأم تأخذ بيد ابنتها وتدخلها دائرة الفطرة، فتقف مع نفسها وقفة واقعية،

(١) سر صناعة الإعراب ابن جني، ج١ حرف اللام.

تعود بعدها إلى ذاتها الأنثوية: (النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال).

وتستخدم الأم الوصفية الدقيقة لبيان مدى الارتباط العائلي: (شدة حاجتها إليها)؛ أصل التعبير: حاجتها الشديدة إليها، لكن تقدَّمت الصفة على موصوفها وأصبحت مصدرًا، مثل قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾، وهذا لشدة المبالغة في الوصفية، مع أنها جزء منه لذلك أضيفت إليه.

(كنت أغنى الناس عنه): استخدام أفعل التفضيل مع إضافته إلى اسم مقترن بأل الاستغراقية؛ فهي (أغنى الناس) على الإطلاق حال القيدية وهي: (لو استغنت المرأة عن الزوج).

وهنا لمحة اجتماعية: فالأم قالت: (ولو أن امرأة استغنت عن الزوج)، ولم تقل عن (الرجل)؛ فالزوج إيماء إلى العلاقة الشريفة، وليست المخادنة.

(ولكن النساء للرجال خلقن): هذا بمثابة إعلان عام عن غلبة الفطرة، وفيه تعريض وتلميح بأنها كأي فتاة لاتستغنى عن الزوج، وهنا تخاطب الأم في ابنتها نفسية الأنثى، وتوقفها داخل عالمها الخاص، ثم تتركها برهة تستحضر فيها رغباتها وآمالها الأنثوية التي طالما ترددت أصداؤها بين جوانحها، فأضاءت أنوار الاستشراف لغد زاهر مشرق، فهي تريد أن تثبت ذاتها، وترسم حدودًا لكيانها المستقل، وتكون في عالمها ملكة، وهذا الملك يبدأ من: (كوني له أمة).

فمملكتها ترسم حدودها خطوط الطاعة، ويلفها سياج الامحاء في ذات الزوج، ويظللها سقف: الإعظام والإكرام، وأرضها: درر المحبة، وهواؤها: نسائم الثقة والرضا، وشعبها: العيال والحشم، ودستورها: (كوني له أمة يكن

لك عبدًا)، وحراسها: (حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك)، وإعظام الزوج يستجلب الإكرام منه وطول المرافقة. (كوني له أمة يكن لك عبدًا) راية شعارها منطوقها ومرسومها، فحمَّلته الأم ابنتها.

وجملة: (ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال) توحي أن هذا الأمر من الجلاء بما لا يجعله محتاجًا لمزيد إيضاح أو فلسفة؛ فلقد وضعت الأمور في نصابها وأغلقت باب النقاش، فكان كلامها صرخة عالية مدوية للنساء، فما جاء على أصله لا يسأل عن علته.

«وخلاصة هذه الفقرة: أن البنت لو كانت ببيت أبيها وأمها لم تحتج إلي الوصية؛ لأنها محاطة برعايتها، وأن البنت غنية عن الوصية بغنى أبويها»[1]. ولا بد من وضع إطار خلقي واجتماعي جديد، وترك الماضي وراء ظهرها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية، والداعية إلى الحياة، ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد وهو وضع النهضة، وحاولت الأم وضع سلبية تفصل ابنتها عن رواسب الماضي، وإيجابية تصلها بالحياة الكريمة.

تهيئة ما قبل الرحيل:

«أرادت الأم أن تزيل عنها غربة الدار، وأن تخلق الألفة بينها وبين قرينها، وعليها أن تتحلى بهذا الخلق وتتبَّع هذه الوصايا»[2]. «والأم تتهيَّب المرارة والمأساة

(١) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٦.

(٢) الوصايا في الأدب العربي، د سهام الفريح، ص٣٨.

إذا فشلت ابنتها مع زوجها»[١]، فما زالت الأم تتدرج مع ابنتها بتـؤدة ورفـق؛ فهـا هي تأخذ بيدها نحو آفاق أرحب، «وهي في كل ذلك تضع التفاصيل لكـل قسم، والأسباب الموجبة له؛ إذ لعل ابنتها لا تدرك معنى من المعـاني التـي ذهبـت إليها الأم، لأن تجربة ابنتها في الحياة محدودة لم تصل إلى غاية الإدراك بعد»[٢].

في الفقرة الثالثة أخذت النبضات وقعًا أعلى قليلًا، لذلك بدأت للمرة الثانية بالنداء الحاني الرقيق الذي تملؤه نبرات الإشفاق، وكررت النداء دفعًا لرتابة الوصية مما يستجلب الفتور في التلقي.

وفي روايـة «مجمـع الأمثـال»: (يـا بنيـة أمـك فارقـت الحـق الـذي منـه خرجت..فأصبح بملكه إياك رقيبا ومليكًا). «الرقيب»: المنتظر، ...ورقب الشيء يرقبه: حرسه...والرقيب: الحارس الحافظ....

رقيب: فعيل بمعنى فاعل، وفي الحديث: (ارقبوا محمـدًا في أهـل بيتـه)؛ أي احفظوه فيهم، والترقب: الانتظار والرصد»[٣].

وفي رواية: (أي بنيه: إنك قد فارقت الحواء الذي منه خرجـت، والـوكر الـذي منه درجت فأصبح بملكه عليك ملكًا)[٤].

وفي رواية: (أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي

---

(١) جمهرة وصايا العرب العصر الجاهلي، محمد نايف الديلمي: ١/ ٦٨، ١٩٩١.

(٢) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٧، ٦٨.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٧٩.

(٤) جمهرة وصايا العرب: ١/ ١٣٣.

فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا) [١].

هنا أرهف التراكيب دلالة على انخلاع قلب أمها حينما أخذ حديثها يسترسل، فوصل إلى ما يشبه الوداع قبل الرحيل، فعندما قالت الأم: (**يا بنية أمك**) شعرنا وكأن زلزالًا هز قلب الأم وأثار كيانها، كما أنها أفرغت حنانها في هذا التعبير الذي تشرَّب فيض إحساس الأمومة، وفي الوقت ذاته أرادت الأم أن تُفعِّل قوى ابنتها، وأفضل ما يستفرغ طاقة المرأة الزواج والأمومة.

(**إنك فارقت الحق**): «إن دخلت إنَّ ترى الجملة ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا وسبكا أحدهما في الآخر»[٢].

الحق: «هو مرافق الدار، وحقيقة الشيء منتهاه والمشتمل عليه»[٣]. صاحبة الدار التي طالما عاشت في كنف الدار ومن فيه حان وقت رحيلها؛ فلقد بلغت مبلغ النساء وحق لها الزواج.

وفي رواية: (**قد فارقت الحواء الذي منه خرجت... فأصبح بملكه عليك ملكًا**). «الحواء: احتويت عليه إذا ضممته، واستوليت عليه فهو محوي، وحويته: ملكته»[٤]. الفتاة التي ضمها ووالديها بيت واحد آن لها الرحيل.

---

(١) مجمع الأمثال للميداني، مختارات محمد علي قاسم، ص ١٤٠.

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٣١٦.

(٣) المصباح المنير، ص١٩٨.

(٤) المصباح المنير، ص ٢١٧.

وفي رواية: (فارقت الجو) والجو هو: المحيط والوسط الذي تربَّت فيه.

في رواية: (فأصبح بملكه إياك رقيبًا ومليكًا): الحراسة، والحماية، والحفظ، والرصد، كل هذا أوحت به دلالة كلمة (رقيبًا)، وكل هذه مهام يقوم بها الزوج، وليس عمله التملك الأناني الديكتاتوري. وفصل الضمير «إياك» أوحى بالحيازة والملكية والقدرة على التحكم، مما يستلزم الطاعة وإجادة التنفيذ، مما يُعلي قدر الزوجة فيكون الزوج لها (عبدًا) ليس تذللا، بل وفاء وإكرامًا.

وفي رواية: (فأصبح بملكه عليك ملكًا): وكأن الأم تلمح أن ملك الزوج ينقصها؛ فهي كالدرة التي يكتمل بها التاج، وعليها أن تحرص على هذا الإكمال والارتفاع لهذا المستوى، والمعنى الظاهر أنه امتلكها، وعليها الطاعة والاحترام، فإذا ما أدت الزوجة ما عليها أدى الزوج ما عليه؛ (علاقة تبادلية مبادرية). والرواية الثالثة هي الأولى، ولكن الوصية العامة الجامعة في أغلب الروايات هي: (كوني له أمة يكن عبدًا).

عودة إلى النص: (إنك فارقت الجو الذي منه خرجت): استعمال (إن) والفعل (فارقت) يوحي بنهاية زمن وبداية آخر له خصائص جديدة، وضمير المخاطبة يشعر الابنة بالمسؤولية التي بدأت في تحمُّلها بداية من ليلة زفافها. (فارقت الجو الذي منه خرجت)[١]: «تفارق القوم: فارق بعضهم بعضًا، وقيل التفرق للأبدان»[٢]، وفي رواية «الأعلام» للزركلي: (أي بنية

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢.

(٢) لسان العرب: ١٠/ ٢٤٣،٢٤٤ بتصرف.

إنك فارقت الحواء) [١]، وفي «جمهرة الأمثال»: (إنك فارقت الحوى الذي منه خرجت) [٢]، وفي «العقد الفريد»: (إنك فارقت بيتك)، وفي رواية «مجمع الأمثال»: (إنك فارقت الحق).

«الجو: الهواء، قال ذو الرمة:

.... والشمس حيرى لها في الجو تدويم

و قال أيضًا:

وظل للأعيس المزجى نواهضه … في نغنف الجو تصويب وتصعيد

والجو: ما بين السماء والأرض؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾.

(فارقت)، (خلَّفت): الإسناد أوحى بحريتها في التصرف؛ فهو بمحض إرادتها، فهي تخرج وفق اختيارها لا جبرًا ولا قهرًا. «فاعلت»، و«فعّلت». «فاعلتِ» أي أنها أُهِّلت وهُيِّئت ببلوغها سن الزواج فراق المكان الذي درجت فيه.

«(الحواء): اسم المكان الذي يحوي الشيء؛ أي يجمعه ويضمه، وفي الحديث: إن امرأة قالت: إن ابني هذا كان بطني له حواء» [٣].

«(الحق): قيل المراد بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في أمرها؛ تشبيها بالحقاق من الإبل جمع حق، وحُقّة وهو الذي دخل في السنة

---

(١) الأعلام للزركلي: ١/ ٣٥١.

(٢) جمهرة الأمثال «لأبي هلال العسكري – ج١ ص٥٧٠.

(٣) لسان العرب: ٣/ ٤٠٩.

الرابعة، وعند ذلك يتمكن من ركوبه و تحميله.....وقال بعضهم: سميت الحقة لأنها استحقت أن يطرقها الفحل... وقال الأصمعي: إذا جازت الناقة السنة ولم تلد قيل: قد جازت الحق»[1].

من الدلالات المعجمية السابقة يتبين لنا: أن الأم آذنت ابنتها بأوان الرحيل، وأن البيت الذي يضمها هذه السنين واشتملها، وكان لها حق فيه، ما عاد مكانها؛ فلقد بلغت مبلغ النساء وحق لها أن تتزوج، وتصنع مستقبلها بذاتها.

وكل الألفاظ التي روي بها النص توحي ببداية مرحلة جديدة للفتاة: فارقتِ (الحق)، (الحوى)، (الحواء)، (الجو)، (العش)، (بيتك)، وفي الوقت ذاته تشعر الألفاظ بالانتماء وعزة النسب وشدة الارتباط والتماسك العائلي، وتشعر أيضًا بالجدية وأهمية الإقبال على الحياة الجديدة، والانخلاع عن الماضي، والانخراط فيما هو آت.

دلالة الألفاظ و دقة المعاني:

لفظة (الجو) لها دلالة على المحيط والبيئة التي طالما عاشت فيها الفتاة؛ وكأنها عصفورة صغيرة كانت دائمًا بحاجة إلى من يرعاها، وهنا استعارة تصريحية لرسم صورة البراءة والانطلاق الطفولي. ودلالة(حواء)، (حوى)، (الحق) كلها كناية تلمح إلى حتمية الانتقال لأنها استوجبت ذلك.

(فارقت): الفعل يوحي بوجوب تغيير المحيط كفطرة بشرية؛ لذلك جاءت: (منه خرجت)، وأوحى الجار والمجرور بالرعاية والإحاطة والحفاظ عليها سنيّ

---

(١) لسان العرب: ٣/ ٢٥٩، ٢٦٠.

عمرها الماضي، وحسن تربيتها.

و(منه) لها علاقة وطيدة بـ (الحواء)، (البيت)، (الحق)؛ فهي خرجت من بيت طالما حواها وضمها بالحب والحنان فيه أبواها، وجمعها بهما عزة النسب وحسن التربية، فبلغت منتهى الأدب، وحقّ لها ما يحق لكل فتاة.

(وخلَّفت العش الذي فيه درجت): «لم ترد الأم أن تقع ابنتها أسيرة حركة التردد بين الماضي بتاريخه وتربيته، وبين المستقبل بآماله وخططه، وأرادتها ألا تتجاوز الواقع وظروفه وضروراته»[1].

(خلّف) يوحي بترك الماضي والتقدم نحو المستقبل واستشرافه، «وفي الحديث: (حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلّفهم)؛ أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه»[2]. الامتداد المستقل: هو مرحلة لها عالمها وإطارها المنطلق من خلفية لها مرجعيتها؛ فما زالت تربط الفتاة بأهلها وبيئتها وقومها روابط تاريخية واجتماعية ووجدانية لا يمكن بترها، رغم الوشائج والعلاقات الجديدة.

دلالة العش والمرحلة الماضية:

(العش): تتناسب هذه الكلمة مع (الجو)؛ فهي عصفورة اعتادت الانطلاق في حياة صافية بلا مسؤولية أو قيد، فالوالدان يحملان كل العبء.

(العش) قيل: هو في أفنان الشجر، فإذا كان في جبل وجدار ونحوهما فهو وكر وكن»[3]. والعش ضعيف، فهو ليس المستقر لها، وهنا استعارة تصريحة؛

---

(١) التفكير الموضوعي عبد الكريم بكار، ص ١٣٩ و١٤٠.

(٢) لسان العرب: ٤/ ١٨٢.

(٣) لسان العرب، ج٩ ص٢٢٢.

إشعار رقيق بوداعتها ولطفها وألفتها.

ومقابلة العش الذي عاشت فيه بالوكر الذي تنتقل إليه رائعة؛ فالوكر: عش الطائر وإن لم يكن فيه كما قال ابن سيده، وفي التهذيب: «موضع الطائر الذي يبيض فيه ويفرِّخ»[١].

وجاءت الجملة: (الذي فيه درجت) والجملة اسمية، وهي حال للعش، وهي أبلغ دلالة على وصف التدرج الزمني داخل هذا العش. والجار والمجرور (فيه) يفيد الظرفية؛ فهي نمت وترعرعت خَلْقًا وخُلُقًا داخل هذا البيت، فحين الرحيل والانتقال كانت (منه) وحين النشأة والتربية كانت (فيه). «(درجتِ) الدرجة: الرفعة في المنزلة... ويقال للصبي إذا دبّ وأخذ في الحركة: درج. ويقال: درج إذا صعد في المراتب»[٢].

(درجتِ) تتناسب و(العش)؛ حيث الارتفاع، و(الجو) حيث التحليق والانطلاق، و(التدرج، والعش، والجوّ) ألفاظ ذات دلالات معنوية؛ حيث أوحت بالارتفاع المتدرج عبر السنين، كنبتة نبتت مع حسن سقاء ورعاية، فأينعت وأزهرت أيّما إزهار.

وتركيب: (فارقت الجو الذي منه خرجت) يرسم عصفورة انبثقت من بيضة، وتصوير المرأة بالبيضة مشهور عند العرب، منه قول امرئ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ....

(١) لسان العرب، ج١٥ ص٣٨٣.

(٢) لسان العرب، ج٤ ص٣١٩-٣٢٢.

تصوير استعاري رائع؛ «عد ابن سلام الجمحي، من مظاهر براعة امرئ القيس تشبيه النساء بالظباء والبيض»[١]. وفي القرآن الكريم: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾، وفي قولها: (خلفت العش الذي فيه درجت) تصوير رائع لمراحل نموها: طفلة صغيرة تحبو، ثم تعثر، ثم تخطو، ثم تمشي مشيتها الأولى.

وبين الجملة الأولى والثانية (شبه كمال اتصال)؛ لأن الجملتين خبريتان، والمعنى بينهما هو إكمال رسم صورة رحيل الفتاة. الأم وصفت حال رحيل ابنتها والبيت الذي ارتحلت عنه بجملتين، وكذلك تفعل في وصفها المكان، والشخص الذي ترحل إليه ابنتها: (إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه)، من العش إلى الوكر انتقالة جدبدة مغايرة، يجب التهيؤ والاستعداد النفسي والذهني لها. دلالة معنوية هامة للفتاة: من حياة اللهو والانطلاق إلى حياة الجدية والمسؤولية، فالوكر في الجبل أو الجدار دلالة على الجدية و المشقَّة.

دلالة الوكر وجدية المستقبل:

والوكر: عش الطائر وإن لم يكن فيه؛ فالسيد سيد وإن غاب، وهي راعية ترعى ما غاب عنه زوجها، وله قوامته حتى حال غيابه، وهي راعية حافظة. والوكر: موضع الطائر للبيض والتفريخ، لذا فوكرها الجديد هو المكان الذي ستنجب فيه الأبناء ليكونوا ملوكًا، أما عند أمها فكان عُشًّا لا وكرًا، حيث إن عشها فيه نشأت وتربَّت، فكان عش إنبات وإنشاء، أما وكر زوجها فهو محض إنجاب وإرعاء. (وكر) مجاز مرسل، علاقته المحلية؛ ففيه سيكون الولد.

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٥٥.

(وقرين لم تألفيه): مجاز مرسل، علاقته السببية؛ فالزوج (القرين) سبب إنجاب الأولاد. وبين (الوكر) و(القرين) علاقة لزومية. وتنكير (وكر)، و(قرين) تناسب الجهل بالمكان والإنسان؛ فعدم معرفة الشيء سبب لرهبته، وعدم المعايشة جدير بانعدام الألفة.

والأم أرادت أن توقف ابنتها على واقعية التعامل مع حياتها الجديدة، ولكن المعرفة والمعايشة ليسا كافيين لإنجاح الحياة الزوجية، فرب ألفة أذهبتها وحشة التباين، ورب معرفة محقتها كثرة اختلاف وجهات النظر فاختلفت القلوب، فوهى الود، ثم حمل عصاه ورحل، فأخذت الأم تسترسل في إرشاد ابنتها لإرساء قاعدة صلبة ترتكز عليها ابنتها، فلا تقتلعها ريح عاصف مما يعتري الحياة الزوجية.

واستخدمت الأم بعد التنكير جُملًا، فوصفت ورسمت بدقة ما أرادت تأكيده لابنتها: (وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه)، فكأن هاتين الجملتين هما: علة سياقة الوصايا العشر. فالأم استخدمت هنا أسلوب التغذية الاسترجاعية الموضوعية لتحسين مهارات التكيُّف مع الآخرين. ولعل الخبر الذي جاء في آخر هذه الوصايا: (فلمّا حملت إليه غلبت على أمره وحظيت عنده) يؤكد بأن الفتاة قد أخذت بوصية أمها فتحقق لها ذلك»[1].

«وإدراك المرء أبعاد ذاته يجعله يتعامل من خلال ذلك الإدراك مع أي مشكلة أو موقف تعاملًا موضوعيًا؛ لأن الجهل يؤدي إلى الغرور والتهور،

---

(١) الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح، ص ٣٨.

ويؤدي إلى نكران الذات وعدم الاستفادة من إمكاناتها»[(١)].

وهذا ما حاولت الأم غرسه حين أوصت ابنتها، فعملت على إيجاد جسور التواصل بين ابنتها وبين واجباتها نحو زوجها، وأخذت تعمل على توسعة الإدراك لديها حتى لا تكون أسيرة الانغلاق الذي يودي بمستقبل ابنتها.

(وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه): هاتان العبارتان رسمتا الرؤية الكلية للحياة الجديدة للفتاة، واستحضرت أطر هذه الحياة بأبعادها المختلفة، وهنا حصرتهما في زاويتين: (المكان)، و(الزوج). وستدرك الفتاة مع السنين كافة الأبعاد والزوايا، وسيرة الفتاة أنبأت بأنها أفلحت مع زوجها، وأنجبت منه ملوكًا، وهذا دليل وبرهان على حسن استيعابها لما قيل لها، وشدة حرصها على العمل به.

(قرين): «المقارنة تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر، ويجري على طريقته»[(٢)]. «والقرينة: فعيلة بمعنى مفعولة من الاقتران، وقرن: جمع شيء إلى شيء... وقرينة الرجل: امرأته بمقارنته إياها»[(٣)].

بدأت الأم تمهد ابنتها أن زمامها وزمام أمورها سيتسلمه زوجها بعدما كان زمامها بيد أبويها طيلة سني عمرها السابقة. فحركة وصفيات الأم المسترسلة تشعر ابنتها بأنها في موكب سائر إلى الزوج ليسلمه إياها: (فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي فيه درجت) بهاتين الجملتين ساقت الأم ابنتها إلى

(١) فصول في التفكير الموضوعي، ص ٥٠.

(٢) الفروق في اللغة، ص٥١٤.

(٣) لسان العرب: ١١/ ١٤١.

زوجها وصفًا، ثم ها هي تُدخلها على زوجها: (إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه).

نقلت الأم ابنتها إلى واقعها الجديد الذي لم تألفه بعد؛ (إحلال نفسي هادئ) وهي تسترسل بلا وثوب مفاجئ، وكأنها تسير مع ابنتها كصديقتين، فأخذت ترسخ في ذهنها ما تريد ترسيخًا إقناعيًا يتغلغل داخل ذهن و قلب ابنتها، فلم ترتب أو تتوجس ابنتها؛ لأن الأم لم تهوِّل الأمور، وأيضًا أخذت الابنة الأمور جدية؛ لأنها لم تشعر بتهوين أمها للأمر. فانعكس توازن الأم على ابنتها فاتزنت رغم صغر سنِّها.

وورد في رواية «مجمع الأمثال»: (فأصبح بمُلكه عليك رقيبًا ومليكًا) والروايات الأخر لم تذكر هذا إلا «الزركلي في الأعلام»: (فأصبح بمِلكه عليك ملكًا) ففي «مجمع الأمثال»: (بمُلكه) جاءت بضم الميم، وفي الأعلام بكسرها.

(مِلك): «متى أطلق عُلم منه الأمة والعبد المملوكان، ولا يطلق على غير ذلك؛ (مليك) بمعنى (فاعل) إلا أنه يتضمن معنى التكثير والمبالغة، والفرق بين المِلك والمَلَك هو استفاضة الملك وسعة المقدور لمن له السياسة والتدبير، والملك استحقاق تصريف الشيء لمن هو به أولى من غيره»[(١)].

«المُلك والمِلك والمَلك احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به»[(٢)]، فرواية (فأصبح بمِلكه عليك رقيبًا ومليكًا) كأن الفتاة استرقَّت، وهو ليس استرقاقًا حقيقيًا، و لكنها الطاعة المطلقة للزوج فتصل درجة الرق. وجاء في الحديث:

---

(١) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، ص ٣١٤.

(٢) لسان العرب: ١٣/ ١٨٣.

(عوان عندكم) أي أسيرات. لذلك وتناسقًا مع سياق المبالغة جاءت الأم بصيغة المبالغة (فعيل) في قولها: (رقيب)، و(مليك). الفاء في قولها (فأصبح بمِلكه عليك رقيبًا و مليكًا) أفادت معنى دلاليًا هامًا؛ حيث إن الجملة لو جاءت بإسقاط الفاء التعقيبية: (أصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا) لأصبحت الجملة صفة ثانية لقرين، ويكون هنا فصل لكمال الاتصال، وتكون الجملة الثانية وصفًا جديدًا لقرين، وتجاوزت الوصفية كونه أصبح مليكًا ورقيبًا عليها. والجار والمجرور (عليك) أوحى بالعلو والتمكن والإحكام. ولكن الفاء التعقيبية حصرت التغيير في أنه عندما تملَّكها أصبح رقيبًا ومليكًا.

الوصية الخالدة تجاوزت قدم الأزمنة، واتسعت مدارات التاريخ، وامتدت امتداد الإنسانية، واستوعبتها ألباب العقول فهمًا ووعيًا، وحملتها نسائم الفطرة عبر الفيافي والقفار، وحطت بها فوق أبراج حضارات القرن الواحد والعشرين، فتطلَّعت إليها أعناق أبناء كل العصور، فبرغم فوح روح الصحراء والبداوة في الوصية إلا أنها عند تناولها في أي عصر يمتزج هذا الفوح مع فوح عطور مختلف العصور؛ فهي بحق نتاج إنساني عام تنهل منه البشرية جمعاء على اختلاف أماكنها و عصورها. ولربّ منصف تأملها ووعاها فمنحها وهجُ عقله تفكرًا؛ (**إن من البيان لسحرا**).

دستور الامتثال و الطاعة (كوني له أمة يكن لك عبدا):

افتتحت الأم وصاياها بطلب رأته من خلال تجربتها مع زوجها؛ إنه قوام بنيان الحياة الزوجية وسر ديمومتها. «هذه الجملة القصيرة المركزة ذات نظرة

بعيدة، وردت في وصايا الموصين، ولم تختلف عنها في جاهلية ولا إسلام»[(١)].

توافقات الأفهام:

فها هو قيس بن مسعود الشيباني يوافق أمامة بنت الحارث؛ وذلك لَمَّا رحل بابنته أخوها بسطام بن قيس، فقالت: «مُرُّوا بي على أبي أودعه، فلما ودعته قال لها: يا بنية: **(كوني له أمة يكن لك عبدًا)**»[(٢)].

وها هو أسماء بن خارجة الفزاري يوصي ابنته هندًا عند هدائها: «يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، ... وإياك وكثرة المعاتبة؛ فإنها قطيعة للود، وإياك والغيرة؛ فإنها مفتاح الطلاق، **(وكوني له أمة يكن لك عبدًا)**»[(٣)].

«كان الزبرقان بن بدر إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال: أتسمعين؟ لا أعرفن ما طلبت، **(كوني له أمة يكن لك، عبدًا)**»[(٤)].

«وعن الزهري قال: قال أبو الدرداء لامرأته: إذا رأيتني غضبت ترضيني، وإن رأيتك غضبت ترضيتك، وإلا لم نصطحب»[(٥)].

من المؤكد أن هذا الاجماع على هذا القانون، (قانون استجلاب السيادة)، وإنما

---

(١) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٧.

(٢) العقد الفريد: ٦/ ٨٨.

(٣) البيان و التبيين: ٢/ ٤٥.

(٤) عيون الأخبار: ٣/ ٣٦٤.

(٥) العقد الفريد: ٦/ ٨٨.

يستجلبه منتهي الطاعة، وهذه الخصال لم يجمع قائليها مكان ولا زمان واحد، بل هو توارد خواطر؛ لمَّا علم كل أناس مشربهم كان كل يعمل على شاكلته.

«سئل الأصمعي عن الشاعرين يتفقان في المعنى الواحد، ولم يسمع أحدهما قول صاحبه، فقال: عقول الرجال توافقت على ألسنتها»[1]. وكانت هذه الوصايا عند هداء العروس، والهدو هو إخراج شيء إلى شيء... وهديت العروس إلى زوجها، فلا بد فيه من اللام لأنه بمعنى زفها إليه... والهداء مصدر قولك هدى العروس، وهدى العروس إلى بعلها، وسميت هديًا لأنها كالأسير عند زوجها»[2] «الهدو من الليل، الهدء، أي بعد النوم»[3].

وأرى من معاني «هدى» هنا بالنسبة للعروس عند زواجها أنها أرشدت إلى الطريق المستقيم، إن سارت العروس وفق الأصول، وهذا ما هدفت وقصدت إليه الأم؛ فالبيت هو أول خطى السير في الطريق المستقيم.

وهنا صياغة الأم الفنية للتركيب لا تبتعد عن الإطار العام الذي وضعت من أجله هذه الوصايا، وعن الشكل والمضمون الذي حدد جوانبها.

دلالات الموقف:

(كوني له أمة يكن لك عبدًا): صيري إلى حال من الطاعة والخضوع كحال الأمة انقيادًا وتذللًا، يصير هو كحال العبد تلبية واستجابة.

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ٣٣.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٦٠،٦١.

(٣) مختارات الأصمعيات، شرح عمر فاروق الطباع، ص ٨٦، دار القلم بيروت.

قال الكرماني في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧] «جاء ﴿فَلَهَا﴾ باللام ازدواجًا؛ يعني أنه قابل قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ بقوله: ﴿فَلَهَا﴾، وقال الطبري: اللام بمعنى إلى؛ أي فإليها ترجع الإساءة.[1]

وفي أمة وعبدًا مشاكلة المطاوعة، وتماثل الاستحقاق.

والأم هنا لم تقصد ذات الألفاظ (أمة)، و(عبدًا)، «إنما تريد شفافية الألفاظ لا كثافتها»[2]. فمعنى الجملة لا يتحدَّد دائمًا وبشكل مطلق بمفرداتها، ومعناها القواعدي، فهناك مؤثرات خارج الجملة قد تؤثر في معناها:

١ - الحركات الجسمية: (تحريك اليدين، الرأس، الأصابع...).

٢ - انفعالات الوجه: «الانفعالات تظهر في العينين اللتين هما مرآة النفس»[3].

«وآثار الأعراض النفسانية في القلب تظهر على الوجه؛ ففي الفرح يظهر الإسفار والإشراق، وفي الحزن يظهر الكلوح والغبرة»[4]. من ذلك قوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء:٧].

٣ - النغمة العامة: «فمن نغمة الصوت نعرف نوع الانفعال، ويكشف

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (بتصرف): ٦/ ١٠.

(٢) اللغة العربية وخصائصها، د محمد المبارك، ص ١٧١.

(٣) علم المعنى (الدلالة)، محمد على الخولى، ص ٧٠.

(٤) البحر المحيط: ٧/ ١٦٦.

ذلك عن الحالة النفسية للمتكلم»[١].

وهنا يمكننا أن نتصور الأم حال إشارتها بأحد أصابعها مستقيمًا مشيرة إلى ابنتها بحزم قائلة: (كوني له أمة يكن لك عبدًا)، ثم دورة الإصبع نفسه نصف دائرة عند قولها: (يكن لك عبدًا)؛ أي استجابة و تفاعلا مع مبادرتك. فالأم نتصورها هنا حال قولها (كوني له أمة يكن لك عبدًا) وقد توجَّهت عيناها بكل حزم ووداد في آن واحد إلى ابنتها، وقد تشرَّب وجهها كله الحنان والشفقة على بنيتها (يا بنية أمك).

أخذت تكررها على مسامع ابنتها، وفي كل مرة تتغير النغمة العامة تبعًا لتغير الانفعال؛ ففي الأولى نغمة حانية هادئة يصحبها وجه مشرق تعلوه ثقة حسن التربية.

وفي الثانية نغمة الإشفاق وما قد يحمله المستقبل من نتائج لا تعرف، فنسمع الوتيرة الصوتية وقد اكتنفها حزم وجدية كست الوجه بعضًا من التقطيب والتغير في العينين مما يتناسب ومقام الحزم.

«(أمة) الأمة: الإقرار والاعتراف»[٢]

(عبد): عبّد الطريق أي: ذلله ومهّده وأزال ما يعوق المسير. وهنا التعبير تشبيه بليغ، وهو أول مراحل الاستعارة (تمهيدًا)، وفي قولها: (كوني له أمة يكن لك عبدًا) كأن الكلام «أُخلي من لفظ التشبيه، وأخرج مخرج

---

(١) علم المعنى (الدلالة)، ص٧١.

(٢) لسان العرب: ١/ ٢٢٨.

الاستعارة، وفي ذلك من المبالغة ما فيه، ومن شأن (الاستعارة) أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء ازدادت الاستعارة حسنًا»[1] فكأن هذا التركيب أدنى المشبه والمشبه به إلى حال الاتحاد، فقوّى التشبيه حتى أوهم إلى ما هو أبعد منه.

الأم أبانت لابنتها أن النتيجة الحتمية لكونها له (أمة) أن يكون لها (عبدًا). دخلت الزوجة دائرة خفض الجناح، ولين الجانب. ذكرت الأم أن المبادرة من ابنتها، لذلك أمرتها بها، ولكنها ستكون نتيجة طبيعية من قبل الزوج بلا أمر ولا تلويح؛ للزوجة: (كوني)، من قبل الزوج: (يكن).

تماثل الاستحقاق:

فعل الأمر (كوني) تحوُّل وتشكُّل جديد، ولكنه تحول الارتقاء الذي أحسنت الزوجة صياغته؛ فهي المبدعة والمنفذة. فلما أبدعت غرس نبتة (أمة) أسعدها جني ثمار (عبدًا)، ولما أحسنت التحول والتشكل، وأسلست الانقياد، أعلى الزوج قدرها إكرامًا، وكانت أبدية المرافقة: (له، لك)؛ خصوصية متبادلة، وتماثل الاستحقاق.

وهذه الخصوصية أكدت تفاعل الزوج مع معطيات (أمة) التي تمنحها زوجه إياه بوصفية (وشيكًا) أي: سريعًا؛ فالنتيجة حتمية سريعة.

جاء في «لسان العرب» مادة عبد: «العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مُذَلَّلًا بكثرة الوطء، ... وقول الله تعالى: ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] أي دائنون، وكل من دان لملك فهو عابد له...

---

(١) الدلائل بتصرف، ص ٤٥٠.

والمعبد: المكرم المعظم؛ كأنه يعبد، والمعبد: المكرم في بيت حاتم؛ حيث يقول:

تقول: ألا تبقــي عليــك فـإنني   أرى المـال عند الممـسكين معبَّـدا؟

أي: معظمًا مخدومًا...وعبد به: لزمه فلم يفارقه... والعبـدة: البقـاء؛ يقـال: ليس لثوبك عبدة أي بقاء وقوة...

والعبدة: صلاءة الطيب...العبد: نبات طيب الرائحة»[1].

دلالات (عبدًا) غزيرة متزاحمة، ومنهـا يبـدو زخـم العطـاء المعنـوي الـذي يستجلبه النص.

أداء الزوجة الواجب يهيج ويستثير مكنونات الرجولة الحقة؛ فكأني بالملـك وقد خلع تاج ملكه وتقلد وشاح (عبدًا) بعـد مـا بـادرت الزوجـة فأصـبحت وكأنها (أمة)؛ فمبادرة الزوجة قابلها الزوج بما هو أكبر؛ فـالزوج: سـهل هـين لين، خادم مُكْرِم مُعظِّم، مبق عـلى زوجـه، طيـب المعاملـة والـروح، ذو بهجـة وإسعاد، لا يمل بل يشتاق إليه.

(عبد) من معانيها: البقاء والملازمة، وكل امرأة سوية لا تـسعد إلا في كنـف زوجها، وها هي الأم بوصفها امرأة تنفث وهجة حرى تدفئ بها قلـب بنيتهـا، وتكشف لها عن سر حفاظ الرجل على زوجته، وديمومة الحياة سويا؛ فكونـك له أمة يجعله عليك محافظًا ومبقيًا إبقاءً ملازمًا لامفارقة معه؛ (عبـد بـه): لزمـه فلم يفارقه، والعبدة: البقاء والقوة. سيقابل الزوج (أمة) بـ(عبـدًا) عـلى أكمـل

(١) لسان العرب: ٩/ ١٢، ١٤.

وجه، وأطيب صورة.

(كوني له أمة) مقيدة بحسن المقابلة والجزاء: (يكن لك عبدًا)؛ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

حسن التبعل بلغت به الفتاة العلا عندما ولجت باب (كوني له أمة).

وتنكير (أمة)، و(عبدًا) إنكار للذات، وذوبان كلا الشخصين في الثاني؛ فهما نصفان يكتملان بالاجتماع، وببلوغ الصفة يُكوِّنان الكيان الواحد سويًّا. ومن عجيب معاني: «(أمة): النسيان»[1] أي: التغاضي والعفو عن الزلات؛ فكثرة المعاتبة توغر الصدور.

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

ومن معالم الحياة الزوجية الناجحة العفو والصفح عن الزلات، وعدم الوقوف النِّدِّي من الاثنين.

(١) لسان العرب: ١/ ٢٢٨.

الفصل الثاني

الوصايا العشر

رواية «مجمع الأمثال»: (احملي عنى عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا)، وفي رواية «الأعلام»: (احفظي عنى خلالًا عشرًا تكن لك دَركًا وذكرًا) [١]، وفي «جمهرة الأمثال»: (واحفظي عني عشر خصال تكن لك ذكرًا) [٢]،وفي رواية «العقد الفريد»: (واحفظي له خصالًا عشرًا يَكُنْ لك ذخرًا) [٣].

وبنظرة متأنية نجد فروقًا معنوية في كل رواية؛ ففي «مجمع الأمثال»: (احملي عني)، وهذا يوحي بعبء ثقيل طالما حملته الأم، وترى أنه حان الوقت لتحمله ابنتها، وهو المسؤولية، والابنة إن عملت بها وعت كان لها ذخرًا وذكرًا على المدى البعيد.

(احملي عني): أوحى بإلقاء التبعة، وأهمية التفاعل المباشر، (عني) «الانحطاط والنزول، نزل عن الجبل». [٤]

أما رواية: (واحفظي عنى عشر خصال تكن لك ذكرًا)؛ هنا التلقِّي وتبليغ الرسالة ، وبيان أهمية الاستيعاب عند التلقي.

وفي رواية: (واحفظي له خصالًا عشرًا يكن لك ذخرًا): هنا البيان بيان الغاية التي من أجلها ساقت الأم وصاياها، وهي رضا الزوج والتوفيق بين الزوجين: (له)، (يَكُنْ)، أي: الزوج، (لك)، (يا بنيتي). وهي لا تريد الحفظ الذي تحويه

---

(١) الأعلام للزركلي: ١/ ٣٥١.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٥٧٠.

(٣) العقد الفريد: ٦/ ٨٦.

(٤) الصاحبي لأبي على الفارسي، ص١٥٩.

الذاكرة وتعيه فقط، بل تقصد العمل بالمحفوظ، والسير وفقه.

وفي رواية «الأعلام»: (واحفظي عنى خلالًا عشرًا تكن لك دركًا وذكرًا).

(خلال): «الخلة: الخصلة؛ يقال: في فلان خلة حسنة»[١]. (دركا): «الدرك: اللحاق والوصول إلى الشيء، والدرك: التبعة؛ يُسَكَّنْ ويُحَرَّك؛ يقال: دراك الرجل صوته أي تابعه، وجاء بمعنى أحاط علمًا بالشيء»[٢].

(ذكرًا) «الذكر: الحفظ للشيء: تذكره؛ ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ معناه: ادرسوا ما فيه. والذكر والذكرى بالكسر: نقيض النسيان... والتذكرة: ما تستذكر به الحاجة...والاستذكار: الدراسة للحفظ، ... والذكر: ذكر الشرف والصيت، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ أي: القرآن شرف لك ولهم، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ أي: ذكرك، والذكر: الشرف والفخر»[٣].

(واحفظي عنى خلالًا عشرًا تكن لك دركًا وذكرًا): تهتف الأم بابنتها أن تعي خصالًا تتحلى بها لتبلغ ذروة الفضيلة؛ فهي تُحمِّلها التبعة، وتحيطها علمًا بخارطة عامة لحياتها المستقبلية، فهي تريد لابنتها الوصول إلى الغاية المبتغاة، فيكون لها شرفًا وفخرًا ممتدًا عبر الزمن، فذكراها ستحفظها الأجيال، وتتواترها رواية مفتخرة، بل وتكون نموذجًا تتدارسه الأجيال للعبرة.

فالخلال تتابع ذكرًا وشرفًا إن عملت بها، ويكون صيتًا ذائعًا، وشرفًا عظيمًا،

---

(١) لسان: ١/ ٢٠١.

(٢) لسان العرب: ١/ ٣٣٤- ٣٣٥، مادة (د-ر-ك).

(٣) لسان العرب: ٥/ ٤٨-٥٠.

وهذا ما كان فعلًا، فها نحن -وبعد أكثر من خمسة عشر قرنًا- نتدارس هذه الوصية، ونجدها ما زالت غضة حية تستقي منها الأجيال كمعين ثرٍّ للقيم النبيلة والأخلاق السامقة. وهنا علاقة بين المقدمة التي قالت فيها الأم مسوغة وصاياها: (ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل)؛ وبين قولها: (تكن لك دركًا وذكرًا)؛ فالتذكرة:ما تستذكر به الحاجة، والمعونة: ما يستعان به على قضاء الحوائج. فلقد نجحت الأم في «اختيار القوالب اللغوية التي وضعت فيها أفكارها وصورها الكلامية التي صاغت فيها المشاعر والعواطف، ولا تنفصل مطلقًا عن مضمونها الفكري والعاطفي»[1].

واستعملت الأم (دركًا)، و(ذكرًا) مصدرين صريحين؛ فالمصدر الصريح له دلالته المباشرة دون تعيين مخاطب أو حدث أو زمن، فالمصدر يمنح التعبير توازنًا لفظيًا وصياغته تصل المستمع أو القارئ بتفريعات التركيب، حيث لا يريد المتكلم ذكر الزمن والفاعل والحدث. وهنا ربط المقدمات بنتائجها؛ (ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل) يوحي بمدى ترابط النص دلالة وتركيبًا، ويبرهن على صدوره من امرأة ذات نفسية لبيبة مدركة تجارب الحياة خبيرة بها، واضحة الغاية، تحسن الاستفادة بالمناسبة، وتحكم ضبط نفس ابنتها، وتتقن غرس بذور المحبة وحسن التبعُّل.

احفظي «نقيض الإضاعة، ومرادف الرعاية...والحفظ هو صرف المكاره عن الشيء لئلا يهلك»[2].

---

(١) فقه العربية وخصائصها، ص ٢٣١و٢٣٢.

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، ص ٣٥٧.

الأم لا تريد لكلماتها الموت بعد المناسبة، بل تريد لها الحياة داخل عقل وقلب ابنتها، وأن تترجم إلى سلوك واقعي يرى في حياتها كي تنعم وتسعد. ولكن لماذا حدَّت الأم وصاياها بعشر؟ (فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا)، وفي «جمهرة الأمثال» و«العقد الفريد» حدَّت الأم الوصايا ترقيًا ثنائيًا، وهذا وسيلة من وسائل الإقناع الفعال؛ حيث نقلت الوصايا مرقمة مما أفاد الفتاة تركيزًا واختصارًا في سرد ما تريد توصيله لها، واستخدمت أقل عدد من الكلمات المعبرة، بل شحنت كلماتها معانيها، ويلاحظ أن الجانب الدلالي الذي استخدمته الأم ببراعة كان يرتكز على الجانب الاجتماعي، وأخذت تقلب صيغه وقوالبه بما يفرغ ما بذهنها من معان.

(ذخرًا): «إحراز شيء يحفظه»[١]، «ذخر: إذا أعددته لوقت الحاجة إليه»[٢]، «وذَخَرَ لنفسه حديثًا حسنًا: أبقاه، وذخر الشيء يذخره ذخرًا: اختاره»[٣].

الأم تبني كمًّا معلوماتيًا يكون رصيدًا تراكميًا عندما تحتاجه تستدعيه؛ فهي تبني الذاكرة: (تعلم، استبقاء، استحضار) كل هذا دلت عليه (ذخرًا). والأم لا تريد بناء أجوفًا من داخله، بل أرادت بناءًا حيًّا تمده ذاتية ابنتها، ودأب حركتها، فهي لم ترد اشتغال ذهن ابنتها بالمعلومات الواردة منها مما يؤثر في منطقها وطلاقتها، بل أشارت أنه ذخر وقتما تحتاجه لجأت إليه، ويبقى لها تقدير كيفية التصرف ووقته.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٣٧٠.

(٢) المصباح المنير، ص ٢٨١.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٨.

دائمًا تفسح الأم المجال أمام ابنتها، «ولم تغلق عليها الدائرة حتى لا تورثها تفكيرًا أحاديًا، وهو ما يجعل صاحبه عاجزًا عن الاستفادة من أكداس المعلومات المتاحة له»[1]. وكانت الأم تلح وتركز هذا المعنى، لصغر سن ابنتها، فدأبت على غرس هذه الأفكار. أرادت الأم أن تكون ابنتها: أهزوجة يتردد صداها عبر الأجيال يشدوبها الركبان.

عقلية الأم منطقية تطبيقية، لا عقلية فلسفية تجريدية؛ فلم تَصُبّ جل اهتمامها على منطق الفكرة، بل صَبَّته وصاغته في منطق العمل والحركة، والقيمة الثقافية للأفكار وللأشياء تقوم على طبيعة علاقتها بالفرد[2].

كان هذا التمهيد سببًا لما يلي: (فاحملي عنى عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا)؛ ربطت تقديمها الحيثيات (المسببات) بأمرها (احملي)؛ «الفاء» ربطت العلاقة بين الأسباب والأمر.

الفعل (احملي) هو أول أمر تُوجِّهه الأم لابنتها، بعد غلبة الوصفيات على الجمل السابقة؛ فهي في مجملها ترتكز على الاسمية الإخبارية، وهذا مما يناسب السياق الذي اتبعت فيه الأم الإقناع، وإحكام إدارة نفسية، وقلب ابنتها، فكانت التراكيب موائمة، ولكنها جعلت تنزع إلى حالة ملحة من حالات الإلزام الطلبي، فأخذ فعل الأمر والنهي حيزًا كبيرًا...فالأم تتهيب المرارة والمأساة إذا فشلت ابنتها مع زوجها.

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي، ص ١٨٧.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص ٤٨.

قدَّمت الأم حيثية شروعها في تفصيل وصاياها، وتحديدها تحديدًا عمليًا مركزًا، فبعدما قدَّمت بين يدي وصاياها: (أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه) بدأت الأم «مرحلة يحدث فيها تقبل الأفكار وإبداعها وتمثلها، حتى لا تعقبها مرحلة يتجمد فيها عالم الأفكار، فيصبح وليست لديه أدنى فاعلية اجتماعية»[١].

وقال الشاعر:

إني رأيت ركود الماء يفسده　　　　إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

الرواية الشهيرة: (احملي عنى عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا):

«(الحمل) ما حمل على ظهر أو رأس، وقيل: ما كان لازمًا للشيء فهو حمل. الحمولة: الأثقال، والحمولة: ما أطاق العمل والحمل، وأحمله الحمل: أعانه عليه، ويجيء الرجل إلى الرجل إذا انقطع به في سفر فيقول له: احملني فقد أبدع بي؛ أي أعطني ظهرًا أركبه، وإذا قال الرجل: أحملني -بقطع الألف- فمعناه أعني على حمل ما أحمله. وناقة محملة: مثقلة»[٢].

«﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾؛ أي: عهدًا ثقيلًا وميثاقًا لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه. ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾؛ أي: لا

---

(١) تفسير البغوي: ١/ ٣٥٨.

(٢) روح المعاني للألوسي: ٢/ ٧٠.

تكلفنا من الأعمال ما لا نطيقه؛ الطاقة: القدرة على الشيء»[١].

«﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾: عبئًا ثقيلًا يأسر صاحبه؛ أي: يحبسه مكانه. والمراد به التكاليف الشاقة، والتعبير عن إنزال ذلك بالتحميل مجاز باعتبار ما يؤدي إليه»[٢].

(احملي): فيها القيام بعبء ثقيل لا تطيقه كل الفتيات المقبلات على حياة جديدة، وتريد الأم من ابنتها أن تعينها على تحمل مشاق الحياة المستقبلية.

والحمل الثقيل يحتاج إلى ظهر قوى، وهنا التعبير كله استعارة مكنية، والاستعارة «إذا نظرنا إليها وجدناها إنما كانت أبلغ من أجل أنها تدل على قوة الشبه، وأنه قد تناهى إلى أن صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في المعنى الذي من أجله شبه به»[٣].

والجار والمجرور (عني) أوحى بمدى جدية الأمر، واهتمام الأم به؛ فهو حمل ثقيل تريد الأم أن تنزله عن كاهلها. (عن) تفيد المجاوزة وإبعاد الشيء عن الشيء؛ وهذا لأن الفتاة قد بلغت طاقة تحملها المسؤولية، والقيام بما يناط بها من أعباء. «وتكميل النفوس البشرية في قواها النظرية والعملية إنما يتم بالعلم بحقائق الأشياء، وما هو إليه كالوسيلة»[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٤٤٨، بتصرف.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٥٠.

(٣) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٧،٦٨.

(٤) أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، ص١١٦.

(عشر خصال): بها تمت الاستعارة؛ فهي المشبه، والمشبه به شيء مادي ثقيل (حمل) كنايته (احملي)، وهذا الذي جعل الأم تسمي وصاياها (ذخرًا وذكرًا) لأنها ستكون رصيدًا لابنتها.

وقولها: (احملي) جديرة به هذه الوصايا؛ فهي تحتاج همة عالية، وإرادة قوية، ونفسًا توَّاقة بالعمل بما يُلقى إليها، لا نفسًا متراخية، فتناسبت الاستعارة في (احملي عني) مع المناسبة.

فالأم تتصل بأعماق ابنتها وترسم لها خارطة الحياة المستقبلية خوف تسرب الانهزامية إلى نفسية هذه الفتاة الصغيرة. «فأخذت الأم تضع التفاصيل لكل قسم، والأسباب الموجبة له؛ إذ لعل ابنتها لا تدرك معنى من المعاني التي ذهبت إليه الأم؛ لأن تجربة الابنة في الحياة محدودة لم تصل إلى غاية الإدراك».

إن دلالات الألفاظ توحي بأهمية المعاني التي سيقت لها هذه الألفاظ؛ فالأم لم تكن هازلة، ولم تلق وصاياها لابنتها إلقاء التسرية والتسلية، إنما للأمور ما بعدها. خافت الأم على ابنتها أن ترهقها تبعات القصور الذاتي، وضعف الإدراك، فتلهث بعد ذلك خلف الحلول المبتسرة أو أنصاف الحلول، فالأم ستتحدث عن تفاصيل ذات علاقة بالصورة الكلية للموضوع، فالأم تخشى التهميش على ابنتها، والاستبعاد عن أداء دور إيجابي فعَّال؛ لأن الشخص الذي يستشعر الإحباط يشعر بعدم الرضا، ويكون في حالة من عدم التوازن، ولذلك كان لا بد من شيء من التكيُّف لتخفيف التوتر وتمكينه من تقبل الوضع.

وفي قول الأم: (احملي عني) إعلان سعة مساحة الذاتية والثقة في تحركها،

ومنحها القـدر الكـافي في الحريـة الفرديـة . (عنـي): الأم أعلنـت بهـذا انتقـال مسؤوليتها، وأن دورها قد تقلَّص، إلا في حدود التوجيـه والإرشـاد بلمـسات خفيفة رهيفة. (عشر خصال): «الخصلة: الخلة والفضيلة»[١].

«والخصلة: الإصـابة في الرمـي؛ وهـي المـرة مـن الخـصل، فهـي الغلبـة في النضال، والخصلة: حالات الأمور... وقد غلبت على الفضيلة»[٢].

(١) القاموس المحيط، ص ١٢٨٤، باب(ل) فصل (خ).

(٢) لسان العرب: ٤/ ١١٢،١١٣.

(١) - دلالة الصحبة بالقناعة

في رواية «مجمع الأمثال»: (الصحبة بالقناعة) وفي رواية «العقد الفريد»: (فالخشوع له بالقناعة)، ولا توجد في رواية «جمهرة الأمثال».

(الصحبة): «صاحبه: عاشره، والصحبة مصدر قولك: صحِب، يصحَب، صُحبة. يُصحِب: يمنع ويحفظ، وهو من قوله تعالى: ﴿وَلَاهُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي يُمنعون. وأصحبَ البعير والدابة: انقادَ، وفي الحديث: فأصحبت الناقة؛ أي: انقادت، واسترسلت وتبعت صاحبها»[1].

(قنع): «رجل قُنعان: يرضى باليسير... والمقنع: الراع رأسه إلى السماء... والقناع والمقنعة: ما تتقنع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها، وألقى عن وجهه قناع الحياء، على المثل»[2].

(خشع) وتخشَّع: رمى ببصره نحو الأرض وغضَّه وخفض صوته. واختشع إذا طأطأ صدره وتواضع، وقيل: الخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في البدن والصوت والبصر؛ كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وخشعت الأصوات للرحمن أي: سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع»[3].

استخدمت الأم المصادر للدلالة على الأمر، ساقت جملها سياقة خبرية،

(١) لسان العرب: ٧/ ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) لسان العرب: ١١/ ٣٢١، ٣٢٢.

(٣) لسان العرب: ٤/ ١٠٠.

فكانت بمثابة وضع دستور لابنتها تسير وفق قوانينه، فهو صادر للتطبيق والالتزام ببنوده.

(الصحبة بالقناعة): المعاشرة بسلاسة وانقياد واتباع، فيه خضوع السيادة والريادة؛ فهي راضية باليسير متعففة مترفعة. (الصحبة) معرفة؛ أي: الكاملة التامة؛ وكأنها استحضرتها وتمثَّلتها.

(القناعة): رافقت الصحبة؛ فهي تامة كاملة، فإن نقصت القناعة انتقصت الصحبة، فهما متكاملان متلازمان.**(بالقناعة)**: الجار والمجرور حال، والتقدير: اصحبيه قانعة.

في رواية «العقد الفريد»: **(أما الأولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة)**؛ فالفاء للتفريع، وهي واقعة في جواب الشرط «أما»، والخشوع أعمّ من الخضوع، والأم أصابت في اختيارها كلمة ذات دلالة؛ **(الخشوع)** وهو سكون يشمل كل صاحبه. والأم تريد من ابنتها أن تصحب زوجها ساكنة متواضعة، وفي هذه الرواية **(فالخشوع له بالقناعة)**: **(له)** الجار والمجرور خصوصية وإفراد وإلزام بحسن التبعل مع التواضع. ورواية **(فالخشوع له بالقناعة)** هي ألزم وأدعى للعلاقة مع **(كوني له أمة يكن لك عبدًا)**؛ **(فالخشوع)** يتناسب مع **(أمة)**، بل هو من مستلزماتها وموجباتها.

(٢)-دلالة حسن السمع والطاعة

(والمعاشرة بحسن السمع والطاعة): «مجمع الأمثال».

(وحسن السمع له والطاعة): «العقد الفريد».

(العشرة): المخالطة، والعشير: القريب والصديق، وعشير المرأة: زوجها، وفي الحديث: (إنكنّ أكثر أهل النار) فقيل لِمَ يا رسول الله؟ قال: (لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير)، العشير: الزوج[1].

«(حُسْن): نعت لما حسُن ومصدر لحسن؛ الإحسان يكون لنفس الإنسان ولغيره»[2]. «وأحسنت: فعلت الحسن؛ كما قيل: أجاد إذا فعل الجيد، وأحسنت الشيء: عرفته وأتقنته»[3].

(السمع): في التنزيل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: خلا له فلم يشتغل بغيره. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: فالمراد منه على أسماعهم؛ فالسمع بمعنى المصدر يوحَّد ويراد به الجمع؛ لأن المصادر لا تجمع»[4].

أثناء الاستماع لا بد من إخلاء الذهن من كل الشواغل:

١ -«الاستماع إلى الأفكار بنفس قدر الاستماع إلى الحقائق.

---

(١) لسان العرب: ٩/ ٢٢٠.

(٢) لسان العرب: ٣/ ١٧٧، ١٨٠.

(٣) المصباح المنير، ص ١٨٧.

(٤) لسان العرب: ٦/ ٣٦٣، ٣٦٥.

٢- عدم التأثر بالأفكار المغايرة لمعتقدك الفكري، فتحوِّل تركيزك أو تمنعه.

٣- وجوب التمييز بين الحقائق والمشاعر عند طرح الموضوع، وكذلك استماعه وتلقيه.

٤- سرعة التفكير تعادل أربعة أضعاف سرعة الحديث، وتقليب الأفكار بموضوعات أخرى أثناء الاستماع يذهب بالانتباه.

٥- الانتباه للحركات المصاحبة للمتكلم أثناء كلامه.

ومما يصرف عن السمع الأحوال النفسية، ومنها:

١ - «الاستماع الدفاعي (تجهيز الرد).

٢ - الاستماع الانتقائي (بعض الكلام الذي يهمه فقط)

٣-الاستماع الشكلي (استماع بلا تحليل ولا ربط بين النقاط، ولا نظر إلى ما وراء السطور)»[1].

(الطاعة): «الطّوع: نقيض الكره...وطاعَ يطَاع وأطاع: لان وانقاد... وأنا طوع يدك: أي منقاد لك...والاستطاعة: الطاقة...تطوّع للشيء وتطوّعه: حاوله»[2].

وفي رواية **(المعاشرة بحسن السمع والطاعة)** من البناء المعجمي للألفاظ تتّضح الدلالات: استخدمت الأم (المعاشرة) مفاعلة؛ وهي مخالطة بين طرفين (زوج، زوجة)؛ أي أن طرفًا واحدًا لا يبني بيتًا أسريًا، فلا بد من التقرب والتقدير المتبادل بين الطرفين. وهذه العشرة لا تكون أداء الواجب، إنما سر

---

(١) انظر فن الإلقاء الرائع، د. طارق السويدان، ص ١٧٢ – ١٧٧.

(٢) لسان العرب: ٨/ ٢١٩،٢٢٠.

السعادة أن تتقن الابنة (فن السمع)، ومن ثمّ تبرع في أداء واجب الطاعة، وإتقانها فن السمع يجعلها تعي ما يقال لها وما يطلب منها، ومن ثمّ فإجادتها فن السمع يوحي برزانة عقلية، ودقة تتبع، ووزن لما يسمع، وتكوين رأي فيه، بعدما يتكوّن التصور.

ففن الاستماع الآن يُدرَّس كفن أساسي، ومهارة في بناء الشخصية العصرية، ولذلك أحسنت الأم وصفها (بحسن السمع) الإحسان يكون للإنسان ولغيره؛ فالأم تريد حسن الإنصات، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾: الإنصات مرحلة التدبر، وهي مرحلة تلي الاستماع، يعقبها التصور للقضية، يعقبها تكوين الرأي فيما استمع إليه، ثم التعبير، فهوبحق علم مستقلّ.

الأم لا تريد لابنتها ما اعتادته النساء من سرعة الإفصاح عما يجيش بصدورهنّ، بلا تمهّل أو تروّ.

فالاستماع وإتقانه، والتفريق بين أنواع الكلام، والنظر إلى نفسية المتكلم، والتبصر بمقاصده، ثم عدم الردّ كردّ فعل، بل ينطلق الرد والتفاعل مع الكلام كاستراتيجية أو تكتيك. لذلك فعلى المستمع إخلاء سمعه وقلبه وعقله، والتوجّه لما يسمع بكلّيته؛ فنجاح الاستماع يعني نجاح تكوين الفكرة وبلورتها، ومن ثم يسهل إبداء الرأي بعد صياغته وإحكام تجميعه تجميعًا شاملًا موضوعيًا. وقد قال الجاحظ: إن العلوم ثلاثة، وجعل أولها الصمت.

ثمّ من بعد حسن السمع تكون الطاعة، والطاعة لا تصدر إلا عن قلب محبّ؛ ما امتلأ قلب حبًّا حتى خشعت الجوارح فانسابت طاعة -حسب رواية العقد

الفريد- فالخشوع يلائم حسن السمع والطاعة، وكأنها أخبتت طاعة، وخفضت جناحها تواضعًا، وهذا من مستلزمات (كوني له أمة)، فما أروع هذا الترابط.

ونلاحظ هنا براعة استخدام الأم للقالب اللغوي المناسب للمعنى؛ فالغالب هنا استخدام المصدر الذي يحوي معنى فعل الأمر، وتتوحَّد فيه الدلالة التخاطبية: (المثنى والجمع، والمذكر والمؤنث)، فهي تستحضر المعاني بالتراكيب الاسمية: (المعاشرة بحسن السمع والطاعة)؛ دلالة ثابتة وصورة مستحضرة، تعبير يصل بالمستمع إلى المعنى المراد وصولًا موجزًا مركزًا. والأم هنا تستخدم «الجملة التركيبية، وهذا النوع من الجمل وحده هو الذي يمكن به أن تكون الجملة إعلامية أوجملة مُعْلِمَة؛ أي تقدم للسامع معلومات عن العالم الخارجي».[1] فهي بالنسبة للعالم الخارجي جملة تركيبية، وبالنسبة لذاتها جملة تحليلية، فكأن الأم سوَّغت دوام العشرة فذكرت سرَّ ديمومتها: (حسن السمع والطاعة). وفي الرواية الثانية: (حسن السمع له والطاعة) الفعل مفهوم ضمنيًا؛ حيث تدلل عليه السياقات السابقة، ولكن الأم هنا ذكرت (له) خصوصية وإفرادًا؛ كأن حسن السمع والطاعة كاملين يقدمان له.

وفي الجملة (والمعاشرة بحسن السمع والطاعة) أيضًا ألمح تعريضًا بأن فقدان (حسن السمع والطاعة) يذهب بالمعاشرة، وهنا روعة الفصاحة حينما استخدمت الأم (الباء)؛ فالباء إن كان معناها المصاحبة يكون المعنى: فدوام العشرة مصحوب بوجود السمع والطاعة، فهما متلازمان، وانتفاء العشرة

---

(١) علم المعنى (الدلالة)، محمد على الخولي، ص ٦٨.

لفقدان السمع والطاعة.

- أو معناها السببية، فيكون حسن السمع والطاعة سببًا لدوام العشرة، وزوال الأول يستلزم انتفاء الثاني.

- أو معناها الاستعانة؛ أي إن أردت دوام العشرة معه استعيني بحسن السمع والطاعة.

واستخدام الأم الجملة الخبرية لفظًا الإنشائية معنى لترسيخ وتثبيت ما تهدف إليه من وصايا.

وأراها ساقت الأمر في صورة الخبر للإيحاء بأن ابنتها امتثلت للأمر ونفَّذته، فساقته الأم كأحكام طُبِّقت. وصياغتها في قالب مصدري في الغالب للإيحاء بأنها قوانين صادرة للتطبيق غير قابلة للنقاش، بل للإلزام الفوري. والجملة توحي بتحذير خفي (إيماء)؛ إن لم تلتزم الابنة بنصائح أمها، ولم تسر وفقها، فعليها أن تتحمل النتائج.

(المعاشرة بحسن السمع والطاعة): الجملة منطقية استدلالية، في داخلها حيثيات النقيض ونتائجه؛ فنقيض حسن السمع والطاعة يزيل المعاشرة. (المعاشرة) مصدر يكمن فيه الفعل داومي، فيكون المعنى: فدوام العشرة يكمن بحسن السمع والطاعة، فالمقدمة تؤدي إلى النتيجة، وانتفاء النتيجة مُعْلِم بعدم حصول المقدمة. إذن هي جملة تركيبية تحليلية استدلالية.

وفي رواية «الأعلام»: (فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرّبّ). وهذه الرواية تناسب النتيجة التي تسعى إليها الأم.

(٣)، (٤) - التعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه

(والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينه منكِ على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح).

(العهد): «يقتضي الوفاء»[١]، «وعُهْدَتُه على فلان: أي ما أدرك فيه من درك فإصلاحه عليه.

«العهد: الحفاظ ورعاية الحرمة، والعهد:الالتقاء، وعهِدَ الشيء: عرفه. والتعهد: التحفظ بالشيء وتجديد العهد به»[٢].

والبناء الصرفي للمصدر (التعهد) تفعُّل يدلُّ على أخذ الشيء بعد الشيء بتمهل، وفيه أيضًا معالجة وبذل الجهد لتحصيل الفعل، وفيه طول الممارسة، وطاقة تصبر على إتيان الفعل ومداومة عليه.

(موقع): «مواقع القطر: مساقطه، وموقعة الطائر: موضع يقع عليه»[٣]. «وقع المطر يقع وقعًا: نزل، ووقع الشيء: يسقط»[٤]. «وقع المطر بالأرض، ولا يقال: سقط، والوَقعة صدمة الحرب، ووقعة الطائر وموقعته: موضع وقوعه الذي يقع عليه ويعتاد الطائر إتيانه، وجمعها مواقع. والموقع: موضع لكل واقع. والتوقع: تنظر الأمر؛ يقال: توقعت مجيئه وتنظرته. وتوقع الشيء واستوقعه: تنظره وتخوفه»[٥].

---

(١) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، ص٧٣.

(٢) لسان العرب: ٩/ ٤٣٩،٤٤٠.

(٣) القاموس المحيط: ٢/ ١٠٣٢، باب العين فصل الواو.

(٤) المصباح المنير، ص ٩٢١.

(٥) لسان العرب: ١٥/ ٣٦٩-٣٧١.

«والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه آية الحضارة». تأمر الأم ابنتها بأن تتابع محافِظة وراعية حرمة المكان والأشياء، وأن تداوم التعرف على كل صغيرة وكبيرة، وتتفقَّدها متعهدة بالرعاية والإصلاح؛ فما كُسر تجبره، وما فسد تصلحه، وما وقع تقيمه، وما قبح تجمله. وهذا هو التعهد.

«وفي حديث أم زرع: ولا تملأ بيتنا تعشيشًا؛ أي أنها لا تخوننا في طعامنا فتُخبِّأ منه في هذه الزاوية وفي هذه الزاوية، كالطيور إذا عششت في مواضع شتى، وقيل: أرادت لا تملأ بيتنا بالمزابل كأنه عش طائر»[1] والتكوين البنائي يؤكد هذا المعنى؛ فهي تراعي بيتها، وتتعهده بالتمهل والتروّ، وتبذل قصارى جهدها في الحفاظ عليه نظيفًا جميلًا، وتمارس هذه المتابعة بحب وشغف.

«(ولا تملأ بيتنا تعشيشًا): أي أنها مصلحة للبيت مهتمَّة بتنظيفه، وفي رواية أخرى (من الغش)؛ أي لا تملؤه بالخيانة، بل هي ملازمة للنصيحة فيما هي فيه، وقيل: هو كناية عن عفة فرجها، وقيل: عن وصفها بأنها لا تأتيهم بشر ولا نميمة، وقيل: (ولا تنجث أخبارنا تنجيثًا)؛ أي لا تستخرجها»[2].

والجرس الموسيقي للمصدر (تعهُّد) يوحي بكل هذه المعاني مع بنائه الدلالي من متابعة وممارسة مستمرة؛ فهي ترقب كل شيء ببصيرة وذكاء.

وتعهدها لكل شيء؛ (فموقع عينه) كناية عن كل شيء، لأن العين تبصر ما

(١) لسان العرب: ٩/ ٢٢٣.

(٢) حديث أم زرع، ص٢٣٠، ٢٣١.

تراه، والمرأة اللبيبة هي التي تحسن التوقع ولا يفوتها الشيء، فحتى لا تقع عين الزوج على قبيح يجب أن تكون المرأة دائمًا على أهبة الاستعداد. وهنا روعة الفصاحة؛ حيث استخدمت الأم المصدر (تعهُّد) وفيه معنى الاعتياد والمداومة والكثرة والإحاطة، ومع ذلك كان متعلقه (لموقع عينه) بالمفرد: موقع، وعين؛ لَمَّا كان محيط الزوج محدودًا جاءت الأم (بموقع عينه)؛ فنفي المفرد هنا يستلزم النفي العام؛ فهي تريد كل موضع يقع عليه البصر، وحتى تخفف عن ابنتها ولا تهولها المسؤولية أفردت لها الأم، وبيَّنت أن أصل الأشياء شيء، والمواقع موقع، فمن بدأ خطوة استطاع إكمال ألف خطوة، ومن لزم مكانه احتاج جهدًا ليتحرك.

وفي التعبير (موقع عينه) إضافة المكان إلى آلته الكاشفة، والإضافة تفيد الآلية الملازمة كما وقع في قولها: (موضع أنفه).

وموقع عينه: مساقطها؛ أي: ما نزل عليه، وإن وقعت العين على حسن فهي نزلت على ما يقرها ويبهجها، وإذا وقعت على ما يسوؤها فقد سقط من تسبب في إيذائها.

«(موضع): موضوعًا، حطه، وعنه حط من قدره، والإبل وضيعة؛ رعت الحمض حول الماء ولم تبرح. فلان نفسه ضعة: قبيحة أذلها»[١].

والوضع أيضًا الموضوع؛ سمي بالمصدر، والموضع اسم المكان، والوضيعة: الحطيطة، وقد استوضع منه إذا استحط...والوضيع: الدنيء من الناس؛ الضّعة: الذل والهوان والدناءة... »[٢]

(١) القاموس المحيط: ٢/ ١٠٣٢، ١٠٣٣، باب العين فصل الواو.

(٢) لسان العرب: ١٥-٣٢٥-٣٢٧.

(التفقُّد): مفقود وفقيد عدمه، «والتفقد: تطلُّب ما غاب من الشيء، وقيل: تفقدته أي طلبته عند غيبته»[1]. ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠]: «تفقد الطير: تعرَّف أحوال الطير»[2]. «وأصل التفقد معرفة الفقد...وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا»[3].

(التفقُّد): تفعُّل؛ فيه معنى التعرُّف على ما يؤذي الأنف –وهو كل كريه الرائحة– بعد تعهُّد كل ما يؤذى العين منظره، والعمل على تلافيه. «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، أو بالأفكار الكبيرة؛ فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالًا أقبح...وللجمال تأثيره في الروح الاجتماعية»[4].

والتعهُّد هنا لما هو ظاهر عيانًا، والتفقُّد لما ظهر وخفي؛ لأن الرائحة يمكنها التسرب ومكانها خفي، وعليها البحث وإزالة كل ما يؤدي إليها؛ فإن خرج كريه الرائحة اشمأزت النفس، وصُدَّت عن قرب مصدرها، واستوُضِع صاحبُها، فيتم تجنبه، وفي ذلك ما فيه من مهانة وإذلال. فالمرأة قوام نجاحها هذه الخصال؛ فهي ملكة في بيتها، وعليها تفقُّد أمور بيتها، وأمورها الخاصة، فإن وجود ما يؤذي الأنف دليل قصور، وعليها تدارك أمرها، فنظافتها تتجاوزها إلى محيطها امتدادًا. فمع النظر جاءت الإحاطة والاتساع (موقع عينه)، ومع الشم جاء التتبع والامتداد (موضع أنفه).

---

(١) لسان العرب: ١٠/ ٢٩٨.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٧٩.

(٣) روح المعاني للآلوسي: ١٠/ ، ١٨٢ بتصرف.

(٤) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص٧٨،٧٩.

وبعد السياق الخبري واستعمال المصدر: (تعهد، تفقد) جاء المكان: (موقع، موضع). والاستخدام السياقي للجملة الاسمية يثبت الحكم، وتسوقه كقانون صادر للعمل به. ثم تستخدم الأم التعبير المباشر بالنهي: (فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح).

(قبيح): فعيل بمعنى فعلة، قبحة، وهنا اسم المرة جاء في سياق النهي، فجاء متجاوبًا مع مقام المبالغة في النهي عن العثور على أقل ما يشمئز منه الزوج.

(منك): الأم لم تقصد نفاذ رائحة من ابنتها جزئيًا، ولكنها تقصد الكل منها؛ مثل: «قولها: (ملأ من شحم عضدي)؛ قال أبو عبيد: لم ترد العضد وحده، وإنما أرادت الجسد كله؛ لأن العضد إذا سمنت سمن سائر الجسد، ووجه اختصاصها للعضد بذلك، والله أعلم، لأنه أقرب ما يلي بصر الإنسان من جسده، وأول ما يظهر له فيه سمنه»[1].

برعت الأم في استخدام الفعل (تقع) وكأن العين التقطت عن غير قصد منظرًا لم يرقها، وكأنها تشعر ابنتها أن الزوج لا يتتبع سقطات رفيقة دربه ومهجة فؤاده، أو يبغي زلاتها، بل نظر نظرة عن غير قصد منه على قبيح، وهنا النهي تسلّط على وقوع العين على قبيح، وقبيح نكرة للتقليل، فالأم تنهى ابنتها عن التقصير ولو في أدنى شيء، ولكنها عند الأمر تأمرها بأن تكون في أعلى درجات الكمال: (ولا يشم منك إلا أطيب ريح)؛ أفعل التفضيل (أطيب) مع التمييز المجرور (ريح)، وهنا المفضل جزء من التمييز، وهذا مما أوضح الصورة

---

(١) حديث أم زرع، ص ١٢١.

وكساها جمالًا. وهذا التركيب: (أطيب ريح) أبان حرص الأم على الوصول بابنتها إلى أعلى درجات الكمال والجمال. «إن الكلمتين إذا ركبتا ولكل منهما معنى وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد»[١].

ومن فصاحة الأم ذكر (عينه) في نهيها (فلا تقع عينه منك على قبيح) وهذا عند النهي عن رؤية ما يؤذي العينين، وأما عند الشم فقالت: (ولا يشم منك إلا أطيب ريح) ولم تذكر هنا آلة الشم (الأنف) ولكن في رواية «جمهرة الأمثال» ذكرتها: (ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح).

وهي سابقًا أشارت إلى ذلك: (والتفقد لموضع أنفه)؛ كأنها تشير إلى أن العين يريها صاحبها ما يريد النظر إليه -والأم تحذر ابنتها أن يرى زوجها ما يسوؤه- أما الشم فإن الإنسان يلتقطه مع التنفس رغمًا عنه، فربما زكم أنفه كريه ما لا يحب، ولذلك فكيانه كله يتأثر بما يشم، فلذلك جسَّدته حين الحديث عن الشم (ولا يشم منك)، ولذلك جاءت بأفعل التفضيل الذي يؤكد كمال الصفة وروعتها.

«في لغة الاجتماع أن الأفكار هي المسؤول الذي تنسج عليه الأعمال: وهي تتولَّد من الصور المحسة الموجودة في الإطار الاجتماعي، والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورًا معنوية يصدر عنها تفكيره، ...ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار... ومن ثم أعمال الفرد في المجتمع »[٢].

---

(١) سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج١ ص ٣٠٦.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص ٧٨، ٧٩.

(شم): «الشمم: الدنو؛ شاممت الرجل إذا قاربته ودنوت منه، أشم الأنوف كناية عن الرفعة والعلو وشرف الأنفس»(١)، فالأم تريد لابنتها الرفعة والشرف، فلا يصل أنفه ما يكرهه ويؤذيه.

أخذت الأم عند حديثها عن الجوانب العملية النسائية تذكر الجزئيات وتتبعها تفصيلًا؛ فبعدما ذكرتها إخبارًا لفظًا يُطوى الأمر داخله -فهو إنشائي المعنى- صرَّحت بالنهي، وهذا له دلالته؛ حيث يوحي بقلق الأم نحو ابنتها الصغيرة.

لذلك في رواية «جمهرة الأمثال» بدأت الأم وصيتها بهذا الجانب العملي: (**أما الأولى والثانية والثالثة والرابعة، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، واعلمي أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود**)؛ «يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات وفي الروائح وفي الألوان»(٢).

(طيب): طعام طيب للذي يستلذ الآكل طعمه؛ فهو لذ وزكا. والطيب: بمعنى الطاهر، ويطيب جسده بإزالة ما عليه من أذى، وأطاب: تزوَّج حلالا... وامرأة طيبة إذا كانت حَصَانًا عفيفة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾...، ومنه: (جعلت لي الأرض طيبة طهورًا) أي: نظيفة غير خبيثة»(٣).

وهنا أيضًا معنى شريف حميد من العفة والطهر؛ فدلالة (طيب) عامة شاملة تحوي معاني الطهر وزكاة النفس؛ فالطهر ظاهرًا وباطنًا. وفي نهي الأم ابنتها

(١) لسان العرب: ٧/ ٢٠٥،٢٠٦.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي/ ص ٨٢.

(٣) لسان العرب: ٨/ ٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٦.

عن أقل القبيح رمز وكناية إلى أي منظر سيء، فكل ما يعيب المرأة في بدنها أو شرفها فهو قبيح بكل ما للكلمة من دلالات.

(قبيح): «القبح: ضد الحسن؛ يكون في الصورة. وقبح له وجهه: أنكر عليه ما عمل»[١].

«إن دستور الجمال في النفس الإنسانية لتعبر عنه هذه المأساة كلها بكلمة واحدة: إنه لمنظر قبيح»[٢] والتلاؤم الدلالي للمفردات رسم الصورة؛ فكأن الأم تومئ من بعيد لابنتها إلى الحفاظ على العفة، فلا يراها زوجها في منظر لا يليق ولا ينبغي للحرة أن تكون فيه؛ (أَوَتزني الحرة؟).

فالعرب تكني عن النفس الزكية الطاهرة بأنها صاحبة (ريح طيب)، فالأم تريد ابنتها طاهرة جسدًا وروحًا.

ثم ها هي ذي الأم تسترسل وتعاود حديثها عن الطهر الحسي: (والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطيب المفقود)؛ في رواية «جمهرة الأمثال» استخدمت الأم فعل الأمر (اعلمي) في قولها: (واعلمي أن الماء أطيب الطيب المفقود)؛ جعلتها أمها علمًا (النظافة والطهر). وطبيعة المرأة الجسدية الخاصة تحتم الاهتمام بهذا الأمر، لذا ألحّت الأم وكرّرته، خاصة أن البيئة الصحراوية شديدة الحرارة.

لقطة حضارية:

وهنا تسترشد الأم بالمتوفر في زمانها عند انعدام غيره أو ندرته، وهنا لقطة

---

(١) لسان العرب: ١١/ ٨،٩.

(٢) مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ص ٨٠.

حضارية؛ فالأم قبل خمسة عشر قرنًا تلزم ابنتها بالتزيُّن لبعلها كي تجذب أنظاره وتلفت انتباهه، وتستحوز على قلبه، فتستديم مودته. إرشاد إلى أداة ووسيلة التجمل والتزين: (أن الكحل أحسن الحسن الموجود) كما ورد في رواية «جمهرة الأمثال»، والروايات الأخر: (والكحل أحسن الحسن). ولا شك أن الأم في الرواية الأولى أكدت وصيتها «بأن»؛ مما يوضح أهمية الخبر المساق، والإشعار بقلق داخلي ينتاب الأم. وسياقة الأم هذه اللفتة: (والكحل أحسن الحسن) يبرهن على حسن تبعل نساء العرب لبعولتهن، وبراعة الأم تكمن في أنها لم تغفل هذا الأمر رغم صغر سن ابنتها.

والكحل طبيعي، فلا مضار له كالمواد الكيميائية التي اكتشف حديثا أنها تسبب السرطان، ثم الطهور (الماء)، وهو سيد نقاوة الأبدان، ويجدد النشاط والحيوية ويزيل الأذى، وبه تجلى البشرة. «كثرة استخدام الماء للمرأة فيه نظافة البدن مما يعلق به جسد المرأة من الدهن المتواجد في جسمها، وهذا ما يؤكده علماء التشريح»[1].

استخدمت الأم أفعل التفضيل لبيان كمال الصفة وطلاقتها؛ فهو صفة مضافة إلى المصدر لبيان استغراقها وشمولها في: (أطيب الطيب)، (أحسن الحسن)، فاستخدام الجملة الخبرية الاسمية دلالة على أن هذا حكم استخلصته الأم عبر حياتها الطويلة وتجاربها المتعددة، فهو خلاصة فكر أُمٍّ تعكس حضارة بيئتها وزمانها، وتورثه ابنتها بعدها.

---

(١) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٩.

فالكحل فيه غناء زينة وجمال، وما أمر زرقاء اليمامة ببعيد؛ فلقد وجدوا أن سر حدة بصرها هو اكتحالها بالاثمد، والماء هو أصل الطيب، فإن وجد بعده طيب فبها ونعمت، وإن فقد الطيب فلا يعدم الماء الذي أقل فوائده إزالة ما يؤذي الأنوف، ويجعل الزوج لا يألف قرب زوجه بل ينأى ويبعد. فالأم هنا تذكر آلية التطهر والنظافة، وكأنها تأخذ بيد صغيرتها ترشدها وتعلمها عمليًا كيفية ذلك.

فالنهي: (فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح) أرشدت إلى حيثية معالجته: (والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب الموجود). ولم تستخدم الأم الفاء، بل استخدمت الواو التي علقت نهيها به، فجملتا: (والكحل أحسن الحسن)، (والماء أطيب الطيب) مقترنتان بالنهي لا مترتبتان عليه؛ أي لا عذر لك، فالكحل والماء موجودان.

روى العتبي قال: «حدثنا إبراهيم العامري قال: زوَّج عامر بن الظرب ابنته من ابن أخيه، فلما أراد تحويلها قال لأمها: مري ابنتك ألا تنزل مفازة إلا ومعها ماء؛ فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء...»[1].

«قال أبو الأسود الدؤلي لابنته: إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب»[2]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٦٣.

(٢) نفس المرجع: ٣/ ٣٦٤.

«قال أسماء بن خارجة الفزاري يوصي ابنته هندًا عند هدائها: يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب: الماء، وأحسن الحسن: الكحل»[١].

«وها هو قيس بن مسعود الشيباني يوصي ابنته: وليكن أطيب طيبك الماء»[٢].

فبوجود الكحل والماء انتفى العذر مما يعيب وجود قبيح أومؤذٍ، فهي جملة تعليلية لدرء العذر، وهذا استدلال منطقي. وقبلها: (فلا تقع عينه) الفاء هنا سببية فهي واقعة في جواب الأمر؛ وهو المصدر: (التعهد).

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٤٥.

(٢) العقد الفريد: ٦/ ٨٨.

(٥)، (٦)- التعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه

(والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه): شؤون يومه؛ تتبُّع وتعرُّف أوقات طعامه دليل مهارة؛ المرأة فحفظها وقيامها برعاية بعلها، وإدراك كل ما يخص الزوج يوحي بشدة إتقان زوجه إدارة شؤون بيتها، وهذا معنى التعهد.

(والهدو): «رجل هدو: كأنه من الهداية؛ الهدى: إخراج شيء إلى شيء، والهدى أيضًا: الطاعة والورع»[1]. فتوفير الراحة والعمل عليها مهمة من مهمات الزوجة تُجاه بعلها، وهي من دلائل حسن التبعل؛ فوقت النوم يستلزم سكونًا، وحسن رعاية حاجات الزوج باب من أبواب الولوج إلى قلبه.

وفي رواية «جمهرة الأمثال»: (والهدوء عند منامه). والهدوء: السكينة التامة.

وبعدما أجملت الأم أخذت تفصل: (فإن حرارة الجوع مُلهبة، وتنغيص النوم مُبغضة).

وصية الأم ترسم تأمين الجبهة الداخلية للزوج فتسترسل في جزئياتها حتى لا تترك ثغرة ينفذ من خلالها الخلاف، حتى يتفرغ الزوج للجبهة الخارجية، وما أوسعها، فهي مُلْكٌ على مساحة كبيرة من بلاد العرب حينئذ.

(الحرارة): «في الحديث: (في كل كبد حرّى أجر): فُعْلَى من الحر؛ وهي تأنيث حرّان، وهما للمبالغة؛ يريد أنها لشدة حرها قد عطشت ويبست من العطش،...والكبد الحرى يراد بها حياة صاحبها؛ فحرارتها دليل حياة»[2].

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ٦٠.

(٢) لسان العرب: ٣/ ١١٥.

«...حارٌ ما أنت فيه: يعني التعب والمشقة؛ الحار: الشاق المتعب»[١].

ذكرت الأم أن الجوع سبب الغضب الشديد؛ ففي «مجمع الأمثال»: (مُلهبة)، وفي «جمهرة الأمثال»: (مَلهبة)، ففي الأولى اسم فاعل، وفي الثانية مصدر ميمي، والمعنى في الاثنتين السببية؛ فحرارة الجوع سبب في الغضب الشديد.

واستعملت الأم (الجوع) وهو أشد حاجات المعدة: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾. وفي قولها: (حرارة الجوع) استعارة؛ كأن الجوع وهج ملتهب له حرارة مؤذية، «اللهيب: اشتعال النار إذا خلت من الدخان، وقيل: لهيب النار حرُّها، والتهب عليه: غضب وتحرَّق...وهو يتلهب جوعًا: كقولك يتحرَّق ويتضرَّم... واللهب: الغبار الساطع»[٢].

فالمجاز هنا رائع؛ حيث استحضرت به الأم النتائج المترتبة على الجوع، وبرعت تصويرًا فرسمت رسمًا دقيقًا.

واستخدام (إن) لترسيخ الخبر الذي ساقته للاستدلال على حكمها، والتأكيد على بيان صدقه وواقعيته. في رواية «العقد الفريد»: (فإن تواتر الجوع ملهبة)؛ «أوترته أوجدته... ووترت الرجل: أفزعته، ووتره حقه وماله: نقصه، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ والتواتر: التتابع: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ متتابعين بينهم فترات...»[٣].

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١١٦.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٣٣٨.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ٢٠٥-٢٠٧.

(وتنغيص النوم مبغضة): رواية «مجمع الأمثال»، وأما في رواية «جمهرة الأمثال»: (وتنغيص النوم مغضبة). في الأولى: تنغيص النوم سبب للبغض والقلى، وفي الثانية: سبب للغضب؛ ففي الأولى ذكر الملزوم: البغض مترتب عن الغضب، وفي الثانية ذكر اللازم: الغضب يترتب عليه، ويدعو إلى البغض.

(نغص): «النغص: كدر العيش؛ نغص علينا أي: قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه»[1].

«نغَّصه عليه: كدَّره... فتنغَّصتْ معيشته: تكدرت»[2]، استعمال بناء التنغيص تفعيل يدل على إيجاد عوامل الكدر، وقطع صفاء الحياة. وعلى الابنة أن تحذر استثارة مقتضيات الكدر، بل عليها أن تعمل على إزالة كل ما يؤدي إليها، وأن تحافظ دائمًا على صفو الوداد. وهنا تلاؤم بين التنغيص واللهب؛ فالتنغيص تكدير، واللهب غضب شديد يذهب صفو الحياة، ومن معاني اللهب الغبار الساطع.

والأم تعمل على منع مثيرات الغضب، وعملت على إزالة عوامل التوتر العصبي، فذكرت إعداد الطعام في وقته، والعمل على توفير الجو المناسب لنومه، بعدما أشارت إلى النظافة والطهر الذاتي والمعنوي. ثم ها هي تنتقل بكل سلاسة وهدوء إلى أمر اقتصادي:

---

(١) لسان العرب: ١٤/ ٢١٩.

(٢) القاموس المحيط، ص ٨٥٩.

(٧) - الاحتفاظ ببيته وماله،

(٨)- والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله

(والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله): وصية عامة مجملة يأتي تفصيلها.

(الاحتفاظ): «خصوص الحفظ... احتفظت بالشيء لنفسي، وفي التنزيل في أهل الكتاب: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي استودِعوه وأُتمِنوا عليه، واحتفظ الشيء لنفسه: خصَّها به. والتحفظ: قلة الغفلة في الأمور والكلام، والتيقظ من السّقطة؛ كأنه على حذر من السقوط... والمحافظة: المواظبة على الأمر، وفي التنزيل العزيز: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾؛ أي واظبوا على إقامتها في مواقيتها. ويقال: حافظ على الأمر والعمل وثابَرَ عليه وحارَصَ وبارك إذا داوم عليه. وحفظت الشيء حفظًا أي حرصته. والمحافظة: المراقبة. التحفظ: التيقظ»[١]. «الحفظ نقيض الإضاعة»[٢].

(الإرعاء): الرعاية نقيض الإهمال؛ ولهذا يقال للماشية إذا لم يكن لها راع: (همل)، «والإهمال هو ما يؤدي إلى الضياع، فعلى هذا يكون الحفظ صرف المكاره عن الشيء لئلا يهلك»[٣].

والرعاية: فعل السبب الذي يصرف المكاره عنه، ومن ثمّ يقال: «فلان

---

(١) لسان العرب: ٣/ ٢٤٢ و٢٤٣.

(٢) الفروق في اللغة، ص ٣٥٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

يرعى العهود بينه وبين فلان؛ أي يحفظ الأسباب التي تبقى معها تلك العهود، ومنه «راعي المواشي»؛ لتفقده أمورها ونفي الأسباب التي يخشى عليها الضياع منها. فأما قولهم للساهر أنه: «يرعى النجوم» فهو التشبيه براعي المواشي؛ لأنه يراقبها كما يراقب الراعي مواشيه»[١]. «وقيل للحاكم والأمير: راع؛ لقيامهم بتدبير الناس وسياستهم، وأرعيته سمعي مثل أصغيت وزنًا ومعنى، وأرعني سمعك»[٢]. «الراعي يرعى الماشية أي يحوطها ويحفظها...والتَّرْعِيَّة: الحسن الالتماس والارتياد لكلأ الماشية... والمراعاة: المناظرة والمراقبة، والإرعاء: الإبقاء؛ أرعيت عليه: أبقيت عليه ورحمته. وفي الحديث: (نساء قريش خير النساء؛ أحناه على طفل في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)؛ هو من المراعاة: الحفظ والرفق وتخفيف الكُلف والإثقال عنه»[٣].

(حشم): «يتحشم المحارم: أي يتوقاها...وحشمة الرجل وحشمه وأحشامه: خاصّته الذين يغضبون له من عبيد أو أهل أوجيرة إذا أصابه أمر، وحشم الرجل أيضًا: عياله وقرابته. وفي حديث الأضاحي: فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن لهم عيالًا وحشمًا، الحَشَم بالتحريك: جماعة الإنسان اللائذون به لخدمته»[٤].

(عيال): «أعال يعيل إذا كثر عياله، عال الرجل يعول إذا افتقر. العيال؛ ياؤه منقلبة عن واو لأنه من عالهم يعولهم، وكأنه في الأصل مصدر وضع على

(١) الفروق في اللغة، ص ٣٥٧.

(٢) المصباح المنير، ص ٣١٥.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٥١-٢٥٣.

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٩٢.

المفعول»[١].

(التقدير): «قدْر الشيء ومقداره: مقياسه، التقدير على وجوه من المعاني: أحدها التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته... قدروا وقايسوا وانظروه وافكروا فيه: يقال: قَدَرت أي هيأت وقدرت...

وقدْر كل الشيء ومقداره: مبلغه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه»[٢]. «التقدير: تقويم الأمر على مقدار يقع معه الصلاح، ولا يتضمن معنى العاقبة»[٣].

(التدبير): «هو تقويم الأمر على ما يكون فيه صلاح عاقبته، وأصله من الدبر، وأدبار الأمور: عواقبها، وآخر الشيء: دبره، و«فلان يتدبر أمره» أي: ينظر في أعقابه ليصلحه على ما يصلحها»[٤].

«والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبر: التفكير فيه. والتدبير: أن يتدبر الرجل أمره، ويدبره أي ينظر في عواقبه»[٥]. «دبَّرتُ الأمر تدبيرًا: فعلته عن فكر ورويَّة»[٦].

---

(١) لسان العرب: ٩/ ٤٧٨ و٤٨١.

(٢) لسان العرب: ١١/ ٥٧ و٥٩.

(٣) الفروق في اللغة، ص ٣٢٩.

(٤) نفس المرجع، ص٣٢٩.

(٥) لسان العرب: ٤/ ٢٨٣.

(٦) المصباح المنير، ص ٢٥٦.

وفي رواية «العقد الفريد»: **(وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله، ومِلاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير)**.

(الاحتراس): «احترست منه: تحفظت منه»[١]. «والاحتراس: أن يؤخذ الشيء من المرعى»[٢].

«**(مِلاك الأمر)** بالكسر: قِوامه، والقلب مِلاك الجسد»[٣]. «ومِلاك الأمر ومَلاكه: قِوامه الذي يملك به وصلاحه... ومِلاك الأمر الذي يعتمد عليه...وما يقوم به...والمِلاك بالكسر والفتح: قِوام الشيء ونظامه وما يعتمد عليه فيه»[٤].

أما رواية «مجمع الأمثال»: **(والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير)** فعبَّرت الأم بالمصدر إشارة للأمر بأنه واجب الامتثال والتنفيذ، فساقت الأمر في صورة الخبر؛ كأنها أمرت ابنتها فامتثلت، فساقت الأمر في صورة ما تم عمله والقيام به. وهنا أمور رسَّختها الأم:

١ - التيقظ والوعي: (الاحتفاظ بالبيت والمال والقيام بشؤون الحشم والعيال):

والاحتفاظ افتعال، وهو بناء له دلالته؛ منها: الحرص ودقة المتابعة

---

(١) المصباح المنير، ص ١٧٨.

(٢) لسان العرب: ٣/ ١٢٢.

(٣) المصباح المنير، ص ٧٩٧.

(٤) لسان العرب: ١٣/ ١٨٤.

ودوامها، والمعالجة على القيام بشيء، وهي ستكون حارسًا على ما ائتمنت؛ فهي راعية تدفع عما استرعته لئلا يهلك أو يعرض للضياع، فتذود عنه كل مكروه وتصرف عنه السوء.

(والاحتفاظ ببيته وماله): البيت يشمل كل ما فيه، ويحوي المال، ولكنها خصَّته بعدما طوي في البيت لأهميته، لذلك فصَّلت بعد ذلك فقالت: **(فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير)**.

فالاحتفاظ حرص بإدراك ووعي، لذلك ناسبه (التقدير الحسن)؛ وهو دقة القياس، والتروي والتفكير في تسوية الأمور وتهيئتها، والغاية من كل هذا: الإصلاح والرعاية القصوى الواعية.

والأم أرادت أن تكون ابنتها شديدة الحيطة والحذر، فاستدعت المصدر (احتراس) لبيان أهمية الرعاية والحفظ، وتوقي الإضاعة والإتلاف. وأكَّدت ذلك بقول موجز ذي دلالة قاطعة شاملة: **(وملاك الأمر في المال حسن التقدير)**؛ فقوام الأمر وقلبه هو الحفاظ على المال ورعايته، واستخدمت هنا أسلوب القصر لحصر الأمر ووصفه: فصلاحه لا يتعداه. ولن تتصدى لهذه المسؤولية إلا ذات عقل حصيف وذهن حاضر يقظ، وهذا ما توسَّمته في ابنتها.

٢ - الإرعاء على العيال والحشم:

فهي تبذل جهدها لصرف المكاره عما استرعته، وتحوط أمورها بشدة انتباهها، وتراقب ما وُكِلَ إليها من أعمال، فتحسن تدبير شؤونها بحكمة وسياسة، وتنظر عواقب الأمور، فلا تقدم على أمر إلا بعد أناة وتروٍ.

(الإرعاء) لفظة زخمت بالمعاني:

أ - الإحاطة والحفظ. ب - الدفع والذود.

جـ - التفقد والمتابعة. د - السياسة والقيام والتدبير.

هـ - حسن الالتماس والارتياد. و- الإبقاء والرحمة والرفق.

هذه المعاني التي حملتها لفظة (إرعاء) توحي بثقل التبعة وجدية الأمر، وكشفت عن غزارة وتنوع ملكات الفتاة وقدراتها.

والبناء الصرفي (إفعال) يدل على خصوصية الدلالة على الحركية المحكمة الدؤوب المتلاحقة، وعلى التفعل الذي تظهر آثاره ونتائجه. والبناء الصرفي أيضًا يوحي بالإحاطة والحذر الدائم.

والقيام بشؤون من يعولهم الزوج مسؤولية أخرى مناطة بها الفتاة، وعبرت الأم بفعال (عيال) وأريد مفعول؛ فهم (معولون). ومراعاة (الحشم) دليل اتساع دائرة المسؤولية لأنها زوجة الملك، فكل من له صلة بالملك من أتباع وخدم هي ترعاهم.

وهنا دلالة اجتماعية خاصة؛ فكل من يرتبط مصيره بمصير الملك فهو من حشمه، وكذلك كل من يعود عليه نفع منه، وكذلك قرابته وجيرانه، وهل يقوم ملك إلا بهذه الصلات وغيرها؟

وكأن الأم استجلبت المصدر (إرعاء) وما حواه من دلالات وإشارات ليسع صلات الملك وأتباعه، مما توحيه كلمة (حشم)، فتأمل (إرعاء) مع (العيال) و(الحشم). والفتاة مطالبة بالإرعاء على:

أ- زوجها. ب- الحشم. جـ- العيال.

وهنا لفتات:

الأولى: أحسنت الأم التقسيم، وفصَّلت بعد تعميم.

الثانية: في قولها: (**والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله**) حذفت منه عند التفصيل -(**والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير**)- ولم تذكر الزوج (نفسه) تجاوز ثقة لا تجاوز إهمال؛ فثقة الأم ويقينها من إرعاء ابنتها زوجها جعلها تتجاوزه إلى ما قد يشوب الاهتمام به شائبة الانشغالات وتزاحمها.

الثالثة: لماذا ذكرت الأم (الإرعاء على العيال)، وقبلها: و(عياله) -وضمير الإضافة ينسب إلى الزوج؛ فهو كناية عنه وإشارة إلى أنه هو الأساس- ففي الأولى (العيال) اسم مجرد بلا إضافة فهو يفيد الشمول والعموم، ثم قالت: (عياله)، ولم تقل: (عيالك) أو(أولادكما)؟ وهذا ما يمكننا تسميته (الإقصاء)؛ وهو: ذكر من له بك صلة وكأنه يتصل بغيرك لغرض بلاغي.

والغرض هنا إشعارها أنها على عمل يستوجب القيام به على أحسن وجه بغض النظر عن الانتماء والعاطفة. وهنا دلالة اجتماعية خاصة؛ وهي أن الزوج كان له أكثر من زوجة، وأولاده من نسائه جميعًا وليسوا من هذه الفتاة فقط.

والإقصاء: مثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ ولم تأت لابنتها؛ لأن السياق يمضي وصفًا لحال التقاط موسى ونجاته من فرعون؛ ولم يسلط الذكر على أخته. فالاهتمام بالأوجب، وهذا سمت عام في الوصايا.

وإحسان التدبير، دليل أفق واسع ممتد؛ قاعدته الروية والتفكر في عواقب الأمور، فيكون ما تؤديه الفتاة ليس ردود أفعال، بل أفعال حكيمة ذات انطلاقة رشيدة.

ومضة موازنة:

١- في أمر المال جاء: (حسن التقدير)؛ حيث قالت: (**فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير**)، بينما في أمر العيال جاء: (**حسن التدبير**)؛ حيث قالت: (**والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير**). وكل أمر جاء على ما يناسبه؛ لأن التقدير -كما سبق-[1] هو: تقويم الأمر على مقدار يقع معه الصلاح، ولا يتضمن معنى العاقبة؛ فناسب ذلك أمور المال والاقتصاد.

ونلاحظ أن الأم أفردت المال بعناية خاصة، وذلك له دلالة اجتماعية خاصة؛ حيث إن الزوج ملكٌ كثيرُ الممتلكات، كما كثر خدمه وأتباعه، فاحتاج المال إلى من يقوم عليه فيحسن التقدير؛ لأن الإنفاق يجب أن يكون في موضعه وبمقداره، فالقيام بشؤون المال، وحسن إنفاقه في أوجهها، ومقياس كم الإنفاق وتقديره؛ كل هذه أمور اقتصادية.

أما التدبير فهو -كما سبق أيضًا[2]- أن يتدبر الرجل أمره وينظر ما تؤول إليه عاقبته؛ فناسب ذلك أمور العناية التربوية والرعاية الذاتية.

٢- الباء، في: (**الاحتفاظ ببيته وماله**) تفيد المصاحبة للرعاية والعناية؛ فكأنها

---

(١) انظر ص١٦٩.

(٢) انظر ص١٦٩.

صحبة دائمة؛ صحبة تفقد ونظر. وقد تفيد الإلصاق، وأقصد به: التمسك عناية لا بخلًا، بل ترشيدًا وحسن إنفاق.

وفي: (**الإرعاء على نفسه وحشمه وعياله**) تضمين حرف الجر (على) معنى (**الباء**)؛ الإرعاء بنفسه وحشمه وعياله. والإتيان (**بعلى**) يوحي بالمجاز؛ فكأن الإرعاء غطاء واسع ممتد عمَّ الجميع بكنفه: الزوج، الحشم، العيال، والذي طرحه على الجميع (**الزوجة**)، فجاءت (على) لدلالة التمكن والإحاطة.

وعطف جملة (**والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله**) على جملة (**والاحتفاظ ببيته وماله**) لأن الجملة الأولى سبب وعصب للثانية؛ فلا قيام بشؤون العيال والحشم والخدم إلا بالبيت مكان السكون والإيواء، وبالمال حركة الانطلاق والبناء.

تعبئة الأم وصيتها بمعالم إدارية رائعة:

ونلحظ أيضًا الصفات الإدارية في قولها: (**الاحتفاظ ببيته وماله، الإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير**)، وفي رواية «العقد الفريد»: (**فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، ومِلاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير**).

وتتلخص هذه الصفات الإدارية في:

١ - القوة: (التخصص والإتقان والكفاءة): في الوصية أمرت الأم ابنتها بـ:

أ - الحفظ وقلة الغفلة. ب - الرصد.

جـ - المراقبة والمتابعة. د - الصيانة.

هـ - الإحاطة بالكل وحسن القيام بالمهام.

٢- الأمانة:

أ- الاحتراس. ب- الاستيداع.

جـ- الإبقاء. د- الرفق والرحمة.

جمعت الأم الصفات الإدارية وروح الإدارة في: (الاحتفاظ، الإرعاء، التقدير، التدبير).

طمحت إلى المثالية فأرادت أحسن ما تستطيعه ابنتها وحثتها عليه؛ (فإنَّ الاحتفاظ بالمال حسن التقدير): في هذا التركيب أسلوب قصر؛ حيث إنها جعلت الاحتفاظ بالمال هو حسن التقدير، قصر ادعائي؛ فكأن حسن التقدير منتف عن غير الاحتفاظ بالمال.

والإخبار: (حسن التقدير)، وليس تقديرًا مطلقًا مجردًا من صفة الحسن المصدرية، وفيه ما فيه من استجلاب كل صفات الحسن وكمالها.

وكذلك قولها: (والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير)؛ فالقيام برعاية العيال والحشم من واجباتها، وعليها أداؤه في أجمل صورة وأكملها... الخبر: (جميلُ حُسْنِ التدبير)؛ فجماله مرهون بحسن التدبير، ولذلك جاء حسن التدبير مضافًا إلى جميل؛ وكأن أصل الجملة: والإرعاء على العيال والحشم حسن تدبيره جميل، ولكن حسن تدبيره هنا تكون مبتدأ ثانيًا، وتكون جميل خبر الجملة، وهذا يجعل جميل الخبر متعلقًا بحسن التدبير فقط، لكن الأم هنا أرادت الشمول والاهتمام بالإرعاء فجعلت أصلها: حسن تدبيره جميل، جمل خبرية.

فالتدبير موصوف مرتهن بالحسن والجمال، ولكنها حوَّلت الخبر الذي كشف طبيعة المبتدأ: حسن، مضافًا إلى التدبير، إلى خبر لـ(إن).

(٩)، (١٠)- ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا

بعدما فرغت الأم من وصيتها الخاصة بالتربية الإدارية والاقتصادية، انتقلت إلى الحفاظ على الأسرار والطاعة -الوقاية الأمنية- (ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره) رواية «مجمع الأمثال».

(فشا): فشا: انتشر وذاع، ومنه إفشاء السر، وقد أفشى القوم، وتفشَّت القرحة: اتسعت، وتفشَّى بهم المرض: عمهم »[١].

(سرًّا): «سروت الثوب وغيره عنِّي سروًا، وسريته إذا ألقيته عنك ونضوته: أي كشفته... وفي الحديث: (فإذا مطرت -يعني السحابة- سُرِّيَ عنه)، أي كشف عنه الخوف... وسرى عرق الشجرة يسرى في الأرض سريا: دب تحت الأرض»[٢].

تواصل الأم تحصين ابنتها (التربية الوقائية)، وهنا تستخدم أسلوب النهي مباشرة؛ فالشأن هنا ضبط اللسان وحفظه عن البوح بما تسمع الأذان أوتراه العين؛ فشأن الملك كبير، وإدارة الحكم كثيرة الفروع، مما يستوجب الكتمان.

والكتمان يدل على نفسية منضبطة تحافظ على المعلومات، فاللسان رهين ذهن صاحبه، أما إن تفلَّت اللسان فهذا دليل خلل فيزيائي وسيكولوجي. فالأم تُعلِّم ابنتها أهمية الحفاظ على ما تؤتمن عليه، أو ما لا داعي لنشره، وإيقاف تسرب المعلومات هو أول تملك زمام إدارة الأمور.

---

(١) لسان العرب: ١٠/ ٢٦٩.

(٢) لسان العرب: ٦/ ٢٥٣و٢٥٤.

واستخدام الأم للفعل (تُفْشِي) بدلالته التي تفيد الظهور والانتشار والعموم دليل براعة في توظيف الكلمات؛ وذلك تناسب مع كلمة (سر)، وهي توحي بالكشف لما ستر وأخفي.

والجرس الموسيقى للفعل (فشا) يشعر بنثر شيء خفيف، وتذريته في الهواء، فملأ الآفاق وعمَّها.

ثم استخدام التنكير للإفراد والتقليل؛ أي: لو سر واحد فلا تفشيه، وكذلك الخروج عن الطاعة ولو في أمر واحد. واستخدام الجار والمجرور (له) مرتين، فبرعت الأم في إثبات ملكية الواجب، لا ملكية الاستعباد؛ فحفظ السر حق الزوج، والطاعة كذلك.

ويلاحظ تكرار الأمر بالطاعة؛ ففي البداية: (**والمعاشرة بحسن السمع والطاعة**)، وهنا: (**ولا تعصي له أمرًا**): الأولى تقعيد عام، ووضع ثوابت لا يجوز تعدِّيها -وجاء التعبير بالمصدر لتقنين هذا الأمر- وهنا تعلَّق النهي بجزئيات تفصيلية، وجاء هذا النهي في إطار (التربية الوقائية)، وأعقبته بتقسيم الجزئيات لسد أي ثغرة تكشفها أحداث الحياة اليومية، فتكون الفتاة على وعي وحذر. «ولعلها تريد أن تسعى إلى تحقيق ما أوصتها به في أول حديثها: (**كونى له أمة يكن لك عبدًا**) »[1]. وفي رواية «العقد الفريد»: (**فلا تعصين له أمرًا، ولا تفشين له سرًّا**).

جاء النهي في صورة الخبر، وهذا إشعار بأنها أُمِرَتْ فامتثلت، وجيء بالإخبار دلالة على وعيها وإدراكها.

---

(١) الوصايا في الأدب العربي القديم، د سهام الفريح، ص٣٨.

عواقب إفشاء السر والعصيان:

ثم تُبيِّن الأم العواقب حال عدم امتثالها: (**فإنك إنْ أفشيت سره لم تأمني غدره وإن عصيت أمره أوغرت صدره**) هذه رواية «مجمع الأمثال»، وفي «العقد الفريد»: (**فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره**).

ربطت الأم العاقبة بالإتيان بما نهت عنه فجاءت (**بالفاء**) لهذا، وتؤكد (**بإنَّ**)، وتُحمِّل ابنتها المسؤولية باستخدام ضمير المخاطب (**فإنك**)، ولكنها تتيقن أن ابنتها أهل للثقة لذلك جاءت (إنْ) للشك، وهي ترجح أنها ستمتثل لوصايا أمها.

ساقت الأم عدم الأمن نتيجة خوف غدر الزوج نتيجة إفشاء أسراره، فكان إيغار صدره حال عصيان أمره مقدمات تفضي إلى نتائج مخيفة. والأم تفترض خطأ ابنتها، وتبني على هذا الافتراض سوء العاقبة.

ولم تقدم الأم افتراضًا بخطأ الزوج، ولم تقدم طرحًا يعالج أخطاء الزوج، ثقة في رجاحة عقل الزوج وسعة إدراك يحتوي بها ما يطرأ من نقائص النساء.

والأم رهنت كل خير بما تُقدِّمه ابنتها بداية، وركزت على أن تقوم ابنتها بواجبها، فإن قامت بأدائه جنت ثمرة غرسها تلقائيًا.

والرواية الأولى قدَّمت النهي عن إفشاء السر وربطت النتائج بالمقدمات، ثم أعقبت بالنهي عن عصيان الأمر، وربطت العصيان بإيغار الصدر. وفي الرواية الثانية قدَّمت عصيان الأمر ونتيجته، ثم إفشاء السر ونتيجته.

(أوغر): «الوغر: الحقد والضغن والعداوة والتوقُّد من الغيظ، التوغير: الإغراء بالحقد، وغر الماء: سخنه وأغلاه، توغَّر: تلهب غيظًا»[(١)]، «الوغر: احتراق الغيظ، ويقال: وغر صدره عليه، إذا امتلأ غيظًا وحقدًا، والوغير: لحم يشوى على الرمضاء، والإيغار: أن تسخن الحجارة وتحرقها ثم تلقيها في الماء لتسخنه... »[(٢)].

إفشاء سر الزوج هو إيذان بفشل الحياة الزوجية بينهما، وهو خيانة يستحيل معها الود إلى نار متقدة، وهذا يتناسب معه الإيغار بكل دلالاته اللغوية.

والزوج إن تسرَّب الشك إلى قلبه في زوجه أدنى درجة أخذ يتربص الأدلة التي تدين زوجه، فاستحالت نسائم المحبة إلى دُخُنٍ وألهبة نارٍ يزكي أوارها بغض وحقد بسبب الخيانة التي قامت بها الزوجة. إفشاء سر الزوج دلالته أن انتماء الزوجة ليس لزوجها؛ فهي كعميل لعدوه، والزوج والحال هكذا يتحين الفرصة للإيقاع بالزوجة والانتقام منها.

وهنا إفشاء سر الملك الزوج، وليس رجلًا من العامة؛ فسرُّه ثمنه أرواح ودماء، ومثله لا يذاع له سر. وعصيان أمره هو حطب نار أشعلتها الزوجة، والدلالة المعجمية تدلل بكلمة أوغر على عظيم معنى هذه الكلمة؛ فعدم الطاعة يحمل في طياته: اللامبالاة، والإهانة، والندية. وهذه كلها بداية تكوين الحقد والتوقد غيظًا، والإيغار يلتهم كل ذرات الوداد والرحمة، ويحل محلها التربص للفتك والترصد للنيل، وأقرب شيء الفراق وفقدان الأمن مع الزوج

---

(١) القاموس المحيط: ١/ ٦٨٢، باب الراء فصل الواو.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٠.

(لم تأمني غدره)، وضياع المحبة (أوغرت صدره) يكفيان لحل أوثق العرى؛ فلا استقرار ولا سكينة مع خوف، ويتضح شأن الخوف وخطورته في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾.

وفي حفظ سر الزوج جاء في حديث «أم زرع»: «...(جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟! لا تبث حديثنا تبثيثًا): أي لا تظهره»[1]. فهنا تفخر أم زرع بجارية زوجها أنها تصون السر فلا تطلع عليه أحدًا، وبضدها تتمايز الأشياء.

فأنَّى لزوج أضاعت زوجه ثقته بها أن يخلد إلى سكينة؟! عُشٌّ أضحى أوهى من بيت العنكبوت.

والولوج في التفاصيل، وذكر النتائج، واستحضار رهبتها وبشاعتها حتى ترسم الأم صورة مستقبلية مخيفة؛ فاستحضار الشيء ومعايشته جدير بمنع الوقوع فيه. «والأصل أن يستعمل في سكون القلب... وأمن البلد، اطمأن به أهله»[2]. في رواية «مجمع الأمثال»: (إن عصيت أمره)، وفي «العقد الفريد»: (إن خالفت أمره)، والمعصية أشد من المخالفة.

«المخالفة: خلف فلان بعقبى إذا فارقه على أمر فصنع شيئًا آخر...وقول أبي ذؤيب:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نوب عواسل

---

(١) شرح حديث أم زرع، بتصرف، ص ٢٣٠.

(٢) المصباح المنير، ص٣٣.

معناه: دخل عليها وأخذ عسلها وهي ترعى؛ فكأنه خالف هواها بذلك». [1]

فالأم تنهى عن المخالفة لأن ذهاب الابنة إلى هواها وترجيحه ثم اتباعه، يلهب صدر زوجها غيظًا، ويشعل أوار أحقاده؛ فبالمعصية أو المخالفة كأنها بلسان حال تصرفها تقول: (أنا مثل مثلك؛ أنت قائد وإني لذات سيادة)؛ مزاحمة تزيح أحد الطرفين وتؤذن بدمار البناء العائلي وزواله.

الند من قولك: ناد فلان فلانًا؛ إذا عاداه وباعده، ولهذا سُمِّي العند ندًّا، وقال صاحب العين: «الند ما كان مثل الشيء يضاده في أموره» [2] لذلك اعتنت الأم بابنتها؛ فهي الطرف الذي تملكه، ولها به صلة مباشرة، فإن أفلحت معها فلقد حققت مبتغاها.

---

(١) لسان العرب: ٤/ ١٨٧.

(٢) الفروق في اللغة، ص ٢٥٧.

حاشية الوصية

بعدما أنهت الأم وصاياها العشر بقولها: (**ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا... أوغرت صدره**) شرعت في حاشية تذيل بها وصاياها؛ وذلك بدءًا من قولها: (**ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا**) إلى قولها: (**فيما أحببت وكرهت**).

والأم هنا ترسم معالم نهاية الطريق لابنتها، وكلما اقتربت من النهاية ارتفعت وتيرة الوصية، وكأن أنفاس الأم تتلاحق خوفا وشفقة على ابنتها الصغيرة من الفشل لعدة عوامل منها:

١ – صغر سنها مما يستلزم عدم خبرتها وسابقة تجربتها في الحياة.

٢ – مكانة الزوج (الملك) وما يستتبع ذلك من ضخامة المسئولية.

٣ – حرص الأم على إثبات ذاتية ابنتها وقدرتها على النجاح والتفوق.

وفي حين كانت الوصايا العشر بمثابة أطرٍ قننت بها الأم سَيْرَ حياة ابنتها، جاءت الحاشية لتدور حول المحاور النفسية؛ وهو ما يتضح في الفقرة التالية:

مراعاة نفسية الزوج:

(**ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير**): بدأت من هذه الوصية تلقي ظلالًا تحيط بها وصاياها، فهي كإشراقة تعم الوصايا، وكسياج عام يكتنف الأطر التفصيلية التي غرستها الأم.

(ثم): توحي بالامتداد اللين الذي يتسع كل الوصايا؛ فهو سياج ممطط يمتد أفقيًا ورأسيًا.

والأمر (اتقي): وقاه الله وقيًا ووقاية: صانه،...وفي حديث معاذ: (وتوق كرائم أموالهم) أي تجنبها، ومنه الحديث: (تبقه وتوقه) أي استبق ولا تعرضها للتلف، وتحرز من الآفات واتقها...

وفي التنزيل العزيز: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: أي من دافع، ووقاه الله: حفظه، وأَتَّقِيه تقى وتقية: حَذِرْته»[1].

كأنها تقول مع ذلك: مع ما سبق من وصايا، أو أضيفي إلى ما سبق.

واستعمالها (ثم)، و(مع ذلك) استرسال ليس من باب السرف الجدلي، بل هو من لب موضوعها؛ فبه يكتمل ما بدأت، فهذا حلقة في سلسلة. وهذا الاستئناف إنما هو استئناف الحاجة للاستكمال والإتمام.

وهذه فقرة تعليم ذوقيات ومراعاة مشاعر الزوج، والعمل على التأقلم مع طباعه ؛ فنكران الذات هو أول عوامل نجاح الزوجة؛ لأنه يستلزم التفاني والانشغال بالقيام بالواجب؛ فإثبات الذات هنا هو نكرانها، وتوهجها إنما يستمد من تألق الزوج وإشراقه، ولن يكون ذلك إلا بزوجة كهذه، والتفاني وإنكار الذات من أول مراتب بناء الذات.

والأم لم تسترسل مع ابنتها لتغرس فيها فلسفة التعالم، أو لتورثها سفسطة تتعالى بها لتثبت ذاتًا تائهة فارغة، إنما علَّمتها أن انضوائها تحت لواء زوجها هو الرفرفة والسمو، وامتلاك الآفاق سعة وانطلاقًا، واستتارها ضمن زوجها هو بروزها وظهورها، وأن خفض جناحها له هو علوها ورقيها. فنجاح الزوج

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ٣٧٧،٣٧٨.

وتفوقه إنما يبرهن على زوجة باهرة تكمن خلف هذا النجاح تُعِدُّه وتبدعه.

في رواية «العقد الفريد»: (**ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتمًا، والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا**)، وفي رواية «مجمع الأمثال»: (**ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير**).

«طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس؛ وهو انقباضه وتكاثفه»[1] قال الخليل في العين: «الترح نقيض الفرح»، «وقصرت عن الشيء: عجزت عنه، ومنه قصر السهم عن الهدف قصورًا إذا لم يبلغه»[2].

توصي الأم ابنتها بالحذر وبذل الجهد في مدافعة الفرح عند زوجها عندما تكون الأجواء ملبدة بغيوم ترحه، وكأن الأم تستحضر بنظرة استشفاف مستقبلية ما يعتري حياة الملوك من مشاق ومتاعب قد تنعكس على الزوج الملك في بيته، وعلى ابنتها أن تعمل على استبقاء مودة زوجها، وتصون عشرته؛ فعدم مراعاة الذوق والإحساس آفة تقود إلى التهلكة. لذلك في رواية «العقد الفريد» جاءت: (**ثم إياك والفرح بين يديه**)؛ أسلوب تحذير، واختصت الأم ابنتها، وأفردت لها ضمير الخطاب، إشعارًا بفداحة الخطأ في هذا الأمر.

والفرح صورة نفسية تستجلبها دواعيها، وضابط ذلك الذات، وكبح جماح العواطف والمشاعر دليل قوة إرادة. و(**بين يديه**) كناية عن وجوده وحضرته، مما

---

(١) ابن خلدون، التاريخ، ١/ ٩٢.

(٢) لسان العرب: ١١/ ١٨٤.

يستلزم من الزوجة خفض الجناح.

(بين يديه): مجاز عن المكان والملكية؛ مما يستلزم ازدياد المهابة والتقدير، مما يستوجب من الزوج ازدياد الرحمة والإكرام.

في رواية «جمهرة الأمثال» وردت كلمة **(لديه)** بدلًا من (بين يديه): **(واتقي الفرح لديه إذا كان ترحًا)**.

(لدى) بمعنى عند، لكن (لدى) تفيد القرب وإحاطة المضاف بالمكان ومن فيه.

(إن كان ترحًا): هو حال حزنه؛ فالأم في هذه الفقرة تريد من ابنتها **تجاوز الذات** وتقمُّص حال الزوج، والتفنن في حسن التبعل، والإبداع في ذلك.

وفي «العقد الفريد»: **(إذا كان مهتمًا)**؛ «والمهمات من الأمور: الشدائد المحرقة، وهمني المرض: أذابني. وقيل: هم لنفسك ولا تهم لهؤلاء؛ أي: اطلب لها واحتلْ...وتهم الشيء: طلبه».[1]

الزوج الملك يحمل هموم قومه وأقوام آخرين يحكمهم، وتبعًا لذلك تكثر همومه وأشغاله. والانشغال القيادي يستلزم استهلاكًا ذهنيًا يستفرغ طاقة العقل الفكرية والإبداعية، مما يؤثر على الجهاز العصبي إرهاقًا ونصبًا، مما يجعل الملك الزوج بعض الأوقات يذهل عن التسلية والفكاهة وهو لا يشعر، فعلى الزوجة تقدير ذلك، وهذا ما قصدته الأم بقولها: **(فإن الخصلة الأولى من التقصير)**.

«والتقصير في الأمر: التواني فيه»[2]؛ فالفرح حالة نفسية انبعاثية يسهل

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ١٣٧و١٣٨.

(٢) لسان العرب: ١١/ ١٨٤.

ضبطها ودفعها إلى وقتها، وهذا يحتاج عزمًا وإرادة، فإن توانت الفتاة وقصَّرت كان شيئًا شائنًا؛ لأنه دليل على نفس غير منضبطة، ونقص اكتمال الوعي، وغياب الإدراك.

ولما كانت مسؤوليات الملك وما أنيط به من أعباء ثقيلة مرهقة تستهلك طاقة الذهن تفكيرًا، وتحوي كل ملكاته اشتغالًا، مما يرهق الأعصاب، مما يستلزم أن يلجأ العاقل إلى استرخاء ذهني وعصبي، ويكون بحاجة إلى التفكه للتخفيف عن النفس؛ يقال: «الفكاهة بالضم للمزاح؛ لانبساط النفس بها، وتفكَّه بالشيء: تمتع به»[1]، «وناقة مفكهة ومفكه؛ وذلك إذا أقربت فاسترخى صلواها وعظم ضرعها ودنا نتاجها»[2].

«وفكيهة: يجوز أن يكون تصغير فكهة التي هي الطيبة النفس الضحوك»[3].

(والاكتئاب عنده إن كان فرحًا) «مجمع الأمثال»، **(والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا)** «العقد الفريد»: إذا كان الزوج تميل نفسه إلى المزاح **(وهو داخل بيته)** فعلى الزوجة أن تتفاعل مع حالة الانبساط النفسي لدى زوجها؛ فالزوج إن سكنت نفسه، واسترخت أعصابه فعلى الزوجة في هذا الوقت أن تمد هذا الانبساط وتسترسل معه، فهو كنسائم ليل تهامة، وعلى الزوجة ألا تقطع هذا الامتداد بتعكير هذا الصفو، وألا تخلط صفاءه بالغبرة والسواد.

---

(١) المصباح المنير، ص ٦٥٧.

(٢) لسان العرب: ١٠/ ٣١٠.

(٣) لسان العرب: ١٠/ ٣١٠.

وفي حديث «أم زرع» وصفت إحدى النساء زوجها: «(زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد)؛ تمدحه أنه لين ووديع ويتغافل عن صغائر الأمور احتواء لها، فهي استعارت لهذه المعاني (فهد) أي: اتصف بصفات الفهد من اللين وعدم الاكتراث بأمور عن عمد حياء وكرمًا، وهو إن خرج كان أسدًا في شجاعته وجديته وحزمه»[(١)].

الكآبة والاكتئاب:

الكآبة: فعالة؛ بناء له خصوصية الدلالة على الذي يفعل الوصف بنفسه بملاحظة الملكة، ويدل على الخاصية، فالأم لا تريد أن تتحلى ابنتها بهذه الصفة (الكآبة) والنفس المعقدة التي تنفر. فالأم تريد ابنتها ودودة؛ فإن «الكآبة: سوء الحال والانكسار من الحزن، وتغير النفس همًّا وحزنًا»[(٢)].

والاكتئاب: افتعال؛ «وهو من رماد مكتئب اللون إذا ضرب إلى السواد، وكما يكون وجه الكئيب»[(٣)].

والبناء له دلالة الاتصاف بصفة بإيجاد مقتضياتها، وتمثلها، والقيام بها، وإضفائها على الأجواء، بل وتوسعة ظلالها فتعم الأرجاء. فالملك يحمل همومًا شتى، وأعباء ثقالًا، ودور الزوجة التخفيف والتلطيف لا التكدير والتنفير: (وإذا نظر إليها سرَّته)[(٤)]؛ فالنظر يجمع كل الأحوال النفسانية، فأحسنت المرأة

---

(١) شرح حديث أم زرع، ص ٧٠-٧٢.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٥.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٥.

(٤) رواه أبو داود في الزكاة، ح ١٦٦٤.

التفاعل مع كل حالة، والنتيجة والأثر هو المسرة. فإن كان الرجل حزينًا كئيبًا سرَّته زوجه فأذهبت ما به، وإن كان مسرورًا زادته سرورًا وملأت الأجواء سعادة وهناءة. فوجازة قول سيد البشرﷺ ضمَّت أفانين المعاني وأطايب القول، فهو من جوامع الكلم.

تواصل الأم إرشاداتها، فتأتي صيغة الأمر صراحة: **(وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا)**؛ فعل الأمر (كوني) له دلالة مزدحمة بالمعاني؛ منها: الامتثال التام، والتحوُّل وفق مقتضيات الأمر، والصيرورة بكل حيثياته، والكينونة هنا تحول تام حتى تصبح النفس المأمورة بعد امتثال الأمر غيرها قبل الامتثال، فالفعل يدل على التكون والتشكل الجديد وفق معايير جديدة خاصة.

لم تقل الأم: كوني في معاملتك؛ فالأم أرادت أن تكون ابنتها بكيانها كله في أشد حالات الإعظام لزوجها؛ كل همسة، كل لفظة، كل نظرة، كل فكرة، كل خطرة، كل نبضة، كل نبسة؛ إعظامًا لزوجها.

ومع فعل الأمر الخاص (كوني) يلائمه أفعل التفضيل الدال على اكتمال الصفة «(أشد)؛ وهو يدل على الصلابة والإحكام، وشددت الشيء أشدُّه شدًّا إذا أوثقته، واشتد: أسرع وعدا، والشدة: النجدة وثبات القلب»[1].

(وأشد ما تكونين له إعظامًا): اسم التفضيل خبر (كوني)، وجاء التمييز مصدرًا لإكمال الوصفية دلالة. والأم حشدت في جملتها فعل الأمر (كوني) +

---

(١) لسان العرب ج ٧ ص ٥٤و٥٥و٥٦.

أفعل التفضيل (أشد) وهو يصل بالأمر ذروته + المصدر المؤول (ما + تكون «كونك») + (الضمير «ين»).

نلاحظ أن الجملة حشدت بالوصفيات الامتثالية ذات الدلالة، أما الاستعارة فمعان مجازية، والإشارات تصويرية. لقد برعت الأم في توظيف الألفاظ؛ فالألفاظ لا تعيش منعزلة بل في متون النصوص مجتمعة مركبة مع غيرها من الألفاظ: (كوني): تحول وتجسد، وأفعل التفضيل: الوصفية المطلقة في أعلى درجاتها (أشد).

فالأم توصي ابنتها الصلابة وثبات الجنان، ثم تواصل مدارج الذروة في انصياعها لزوجها: (ما تكونين): (ما)توحي بالوصول إلى المنتهى. (إعظامًا): البناء اللفظي له دلالته؛ فتعبيرها بالمصدر الذي يطوي داخله فعل الأمر –وهو أقوى دلالة على الأمر من الفعل– والجار والمجرور (له) له دلالة الخصوصية والإفراد.

والإعظام: هو القيام بالتوقير والاحترام والتفخيم. وتركيب (ما تكونين) ترسم بذل الجهد في تحصيل الغاية، وهي الإعظام، ولو عبَّرت بالمصدر الصريح ما رسم هذه الصورة.

ثم تبرهن الأم على صدق حدسها، وأنها ما أمرت ابنتها إلا لتأكدها من حسن استجابة وتفاعل الزوج. (يكن أشد ما يكون لك إكرامًا)؛ وجزاء الإحسان هو الإحسان، لذلك استعملت الأم أفعل التفضيل؛ فالإعظام للزوج، وإشعاره عمليًا بهذا يستجلب الإكرام؛ وهو فعل كل خير وفضيلة وعدم الخيانة أو اللؤم. «والتكريم والإكرام بمعنى»، فإكبار الزوجة زوجها

يجلب لها تلقائيًا إكرامه وفضله.

ومقابلة الجار والمجرور (له) بالجار والمجرور (لك) معادلة متبادلة: (إكبار يتولد منه إكرام).

(وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة): عزفت الأم على وتر حساس لدى كل أنثى؛ وهو دوام العشرة مع الزوج وخوف الفشل؛ فدوام العشرة دليل فلاح للمرأة.

(موافقة): «وفق الشيء ما لائمه؛ من الموافقة بين الشيئين كالالتحام، وإن فلانًا موفق رشيد»[١].

تواصل الأم حث ابنتها على الوصول إلى التوافق والملاءمة والالتحام مع الزوج، وهي هنا تقصد أعلى درجات التفاهم؛ وهو توافق التناغم في كل شيء، والامتزاج الكلي تفاهمًا؛ فما أن ينظر الزوج تدرك زوجه ما تكلمت به نظراته دون أن ينبس ببنت شفه.

الطاعة مرة أخرى، ولكنها على درجة أعلى..التفاهم إشارة، شدة الموافقة تستجلب طول المرافقة، وهي الصحبة، ففقدان التواصل بالعين مع المستمع يفقدك اهتمامه ومتابعته.

«والرفق: ضد العنف، لطف لين الجانب ولطافة الفعل، وفي الحديث (ما كان الرفق في شيء إلا زانه) [٢]؛ أي اللطف، وفي التنزيل: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٧.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٥٩٤، وأحمد في المسند: ٦/ ٢٠٦.

مِّرْفَقًا ﴾... ورافق الرجل: صاحبه، ورفيقك: الذي يرافقك...قال الله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾»[1].

«ثم تخرج الأم عن دائرة الوصايا لتختم بتحذير من مغبة أمر يكون معه الفراق الأبدي، فتحذرها من الأمور التي تفكك عرى الألفة والوفاق بين الطرفين فتصل إلى ما لا تحمد عقباه، ومن ثم رفعت أمرها إلى الله تعالى؛ فهو سبحانه الذي يختار لها ويدبر»[2]: **(واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك؛ في ما أحببت وكرهت، والله يخير لك).**

(حتى) «إذا كانت غاية كان ما بعدها داخلًا في حكم ما قبلها»[3]، فالوصول إلى الغاية لا يكون إلا عن طريق التخطيط الدقيق ووضوح المقاصد، وإتقان الاستفادة من الوسائل، فهو وعي ذو منهجية مبنية على العلم؛ **(واعلمي)** علم رصيده التجربة.

وفعل الأمر **(اعلمي)** أي: تيقني واقتنعي، واتخذي هذا الأمر علمًا تخططين له، ويكون شغلك الشاغل.

(وصل) «في التنزيل العزيز: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾؛ أي: وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض لعلهم يعتبرون.. وتوصل إليه أي تلطف في الوصول إليه.. وتوصلًا بمعنى توسلًا وتقربًا»[4].

---

(١) لسان العرب:٥/ ٢٧٣و٢٧٤.

(٢) جمهرة وصايا العرب: : ١/ ٦٧ و٦٨.

(٣) أسرار العربية لابن الأنباري، ص ١٤٥، تحقيق محمد حسين شمس الدين.

(٤) لسان العرب ج ٥ ص ٣١٧.

تأكيد الجملة (أن) للإشعار بأهمية الخبر؛ فهي تدرك مبتغاها، وهو التقرب والتلطف إلى زوجها مما يقوي أواصر المحبة، وهذه جسور دوام الود وبلوغ الزوجة منتهى شغاف قلب زوجها، وهذه مقدمات لها أسبابها. والأم هنا جاءت بجملة خبرية: (أنك لا تصلين إلى ما تحبين)؛ فهي جملة إعلامية لمزيد من رصيد المعلومات كي تكون (ذخرًا). واسم الموصول (ما) يوحي بالاستيعاب والاحتواء لكل رغباتها، وهو رهين إيثار ما يحبه. وفي قولها: (ما تحبين) تعريض بنقيضه؛ وهو: (ما تكرهين) وبإظهار الأضداد تكتمل الصورة. والمقصد هنا الإشعار بجدية الأمر وخطورة النتائج المترتبة على التهاون.

وفي رواية «جمهرة الأمثال»: (أنك لن تصلي إلى مرادك) بدلًا من (لا تصلين إلى ما تحبين)؛ فللزوجة إذن غاية واضحة تتمحور حولها كل التبعات، وتتمركز حولها الانطلاقات؛ هذه الغاية وذلك المقصد هو رضا الزوج والوصول بمحبته للزوجة الدرجات العلا.

و(تصلي) توحي بطول الطريق وصعوبة المعاناة التي ستتكبدها الزوجة حتى تصل في النهاية إلى القناعة أولًا (اعلمي): (تيقن وقناعة، دراسة وتنفيذ)؛ لأنها تريد الوصول إلى غاية (مرادك)؛ وهو دوام العشرة مع زوجها الملك والنجاح في هذه الحياة، وهذا ما أثبتته الأحداث ودلّل عليه التاريخ فيما بعد. «يشير مفهوم الانتقال إلى تأثير تعلم سابق في أداء مستقبلي في وضع جديد ويحدث الانتقال الإيجابي في الأوضاع التي يؤدي فيها التعلم السابق إلى تسهيل الأداء في وضع تعليمي جديد»(١).

---

(١) علم النفس التربوي، د. عبد المجيد نشواتي، ص ٥٢٤و٥٢٥ .

(حتى) عاقبة امتداد الغاية. (تؤثري): «تكرمي وتفضلي، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾... وذو أثرة إذا كان خاصًا»[١].

فالإنسان أسير هوى نفسه، وهو في صراع بين رغبات نفسه ثم صراع آخر مع رغبات الآخرين. وإيثار الآخرين على نفسه لا يستطيعه إلا كبار النفوس. فالفتاة في صراع ما بين رغباتها كفتاة صغيرة ووضعها بعد زواج الملك بها.

(حتى تؤثري رضاه على رضاك): الرضا مصدر صريح، وهو في الدلالة أقوى، وإذا رضي إنسان عن إنسان أحبه وأقبل عليه. والأم عبرت بالملزوم وأرادت اللازم؛ فلقد عبرت بالمصدر الصريح للإحاطة والعموم، ولكنها أرادت المصدر الميمي الذي يفيد السببية: (مرضاته) وهي كل ما يؤدي إلى رضاه، أو بمعنى المفعول: (مرضيًا)؛ أي حتى تؤثري كل ما يؤدي إلى أن يكون الزوج مرضيًا، فالمفعولية تؤدي إلى الفاعلية فيكون راضيًا (كالمجاز العقلي).

و(حتى) تتناسب مع (تصلين)؛ فهي توحي بالمعالجة واستغراق الفعل زمنًا، فجاءت حتى للإيحاء بأن الوصول إلى الغاية لن يكون إلا بهذا الشرط، وهو تفضيل رغباته وما يحب على ما تحبه هي وترغبه.

فالصراع الذي يدور في نفس الفتاة بين رغباتها ورضاه ينبغي أن تكون الغلبة فيه لما يحبه الزوج ويرضاه؛ وهو ما يفيده حرف الجر (على) في قولها: (رضاه على رضاك)، و(هواه على هواك) حيث يفيد حرف الجر (على): الغلبة

(١) لسان العرب: ١/ ٧٠.

والتمكن والعلو المهيمن.

«قال معاوية لعقيل بن أبي الطالب: أي النساء أشهى؟ قال: المؤاتية لما تهوى، قال: فأي النساء أسوأ؟ قال: المجانبة لما ترضى»[١].

(**وهواه على هواك؛ فيما أحببت وكرهت**): في رواية «جمهرة أمثال العرب» في وصية عامر بن الظرب العدواني -ذوالحلم حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهمًا ولا بحكمه حكمًا، وكان إمام مضر وفارسها - قال في وصيته لابنته عمرة حين زواجها لابن أخيه:

«**وإياك أن تميلي إلى هواك ورأيك؛ فإنه لا رأي للمرأة، وإياي ووصيتك؛ فإنه لا وصية لك**»[٢]. هنا لا يريد الأب تهميش دور ابنته، ولا إلغاء وجودها، لكنه يسوق تقريره حال نهيه ابنته عن اتباع هواها وميلها له؛ فهو يحثها على أن يذوب رأيها وشخصها في رأي زوجها، فتزل رأيها حال خلافه مع رأي زوجها كأن لم يكن. ووصيتها هنا كناية عن استقلالها في ملكية شيء وانفرادها به عن زوجها. وفي الذهن حث على انخلاعها من تفردها وإقبالها على الامتزاج في زوجها.

وقال أيضًا في نفس الوصية لزوجته: «أخبري ابنتك أن العشق حلو، وأن الكرامة المواتاة، فلا تستكرهن زوجها من نفسها، ولا تمنعه عند شهوته؛ فإن الرضا الإتيان عند اللذة... ومريها فلا تمزحن معه بنفسه؛ فإن ذلك يكون منه الانقباض، ومريها فلتخبئ سوءتها منه؛ فإنه إن كان لا بد من أن يراها، فإن

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٠١.

(٢) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٩.

كثرة النظر إليها استهانة وخفة»[١].

وفي رواية أخرى: «ولا تكثري مضاجعته؛ فإنه إذا مل البدن مل القلب، ولا تمنعه شهوته؛ فإن الحظوة في الموافقة، فلم تلبث إلا شهرًا حتى جاءته مشجوجة، فقال لابن أخيه: يا بني ارفع عصاك عن بكرتك، فإن كانت نفرت من غير أن تُنَفَّر فذاك الداء الذي ليس له دواء، وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق، ولن تترك مالك وأهلك، فرد عليه صداقه، وخلعها، فهو أول من خلع من العرب»[٢].

«هوى النفس: إرادتها...وقال اللغويون: الهوى: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، قال الله عز وجل: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ معناه نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل»[٣].

لم تكتف الأم بوصيتها: (حتى تؤثري رضاه على رضاك) بل تتنازل الفتاة عن رغباتها وتنهض بإرضاء الزوج حتى فيما لم يصرح به، وهذا يتوافق مع (كوني أشد ما تكونين له موافقة)؛ فمن الموافقة وهي كمال التفاهم، وهنا المعاملة بالملاحظة والإشارة.

فالزوجة تعي من نظرات زوجها رغباته فتلبيها دون أن ينبس ببنت شفة، فإرادته تُلبَّى في كل الأحوال؛ علمتها عشرتها معه فعلمت ما يحب ويكره،

---

(١) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٦٩.

(٢) نفس المرجع السابق: ١/ ٧٠.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ١٦٨.

وقول الأم: (فيما أحببت وكرهت) كناية عن استغراق الطاعة في كل الأحوال.

وهنا برعت حين استخدمت الواو، وهذا إشعار باستواء محبتها وعدمها؛ فهي في كلا الحالين تلبي وتستجيب. ثم تختم الأم وصاياها، داعية ابنتها أن يقدر الله لها ما يحبه ويرضاه، وهذا من بقايا الحنيفية.

لقطات من حديث أم زرع تتضافر ووصية أمامة بنت الحارث

أ- حرية القول وإبداء الرأي:

في قول أمامة: (كوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا). فمن الإكرام سماع رأيها، وإتاحة الفرصة لها للتعبير عن رأيها، ومنحها مساحة للمخالفة والمناقشة والمشاورة.

وأم زرع كانت تفتخر أن زوجها يتيح لها فرصة إبداء الرأي وحرية القول: (فعنده أقول فلا أُقَبّح)؛ فهو لا يقبح قولها ولا يرده عليها لإكرامه إياها.

ب- الترف وإسعاد المرأة:

في قول أمامة: (فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على المال والحشم والعيال جميل حسن التدبير)، وهذا كله كناية عن سعة الحياة ورغد العيش، وأن واجب الزوجة حسن الرعاية وحسن القيام بما تم استرعاؤها عليه. وفي حديث أم زرع: «(وأرقد فأتصبح)؛ أي أنام الصبحة: وهي نوم أول النهار فلا أوقظ إكرامًا لها»[1]. وقول امرئ القيس:

.... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل.

كناية عن وجود من يخدمها فأغناها عن القيام بمهام البيت، فنامت حتى أضحت. وعند أم زرع: فرّحها ففرحت، أو عظّمها فعظمت، وقيل: فخرها

(١) شرح حديث أم زرع، ص ٢٢٨ بتصرف.

ففخرت، وقيل: وسَّع عليها وترَّفها. (وجدني في أهل غُنيمة بشق) أي تصغير غنم، شق: هو بالكسر، أي بجهد من العيش؛ كقوله تعالى: ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

(فجعلني في أهل صهيل): أي: خيل، (وأطيط) أي: إبل، وهو صوت ما يحمل عليها ثقيلًا والرحال.

(ودائس): اسم فاعل من الدوس: أي زرع يداس؛ أي يدرس كالقمح والشعير. (ومنق): وهو أصوات المواشي، وقيل: الدجاج. والمراد أنه نقلها من أهلها، أهل الضيق في المعيشة، إلى أهل رفاهية وسعة»[(١)].

(فخرجت من عند أبي زرع والأوطاب تمخض): «لأنه وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم، ومهنهم، وانطوى أثناء ذلك كثرة خير داره، وغزر لبنه، وأن عندهم منه ما يشرب صريحًا ومخيضًا، ويفضل عن حاجاتهم»[(٢)].

جـ - اهتمام واعتزاز العرب بالذرية:

في وصية أمامة: (والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير)؛ فزوج «أم أناس» ملك، وأولاده ليسوا إلا ملوكًا أو أمراء، فلزمت الوصية بهم. وكانت أم زرع تصف المرأة التي تزوجها زوجها وتفسر سر انبهاره بها أن السبب الأول يعود إلى إعجابه بجمالها وجسمها.

والثاني: حسن أولادها رغم أنهم لم يكونوا منه: (معها ولدان كالفهدين)؛ وصفت ولديها بالفهدين بخلقهما واكتناز أجسامهما، واحتاجت إلى ذكرهما ها هنا

(١) شرح حديث أم زرع، ص ٢٢٧و٢٢٨.

(٢) نفس المرجع، ص ١٥٦.

الزمان على بعلها ولا تعين بعلها على الزمان، ليس في قلبها له رأفة، ولا عليها منه مخافة....إن طلقها كانت حريبته، وإن أمسكها كانت مصيبته، سفعاء ورهاء، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل لما، وتوسع ذمًّا، صخوب غضوب، بذية دنية، ليس تطفأ نارها، ولا يهدأ إعصارها، ضيقة الباع، مهتوكة القناع...بيتها مزبول، إذا حدَّثت تشير بالأصابع، وتبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد ذل لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور»[(١)].

«ومن صفة المرأة السوء: امرأة سمعنة نظرنة؛ وهي التي إذا سمعت أو تبصرت فلم تر شيئًا تظننت تظننًا»[(٢)].

(١) العقد الفريد: ٦/١١٦.

(٢) نفس المرجع، ص ١١٦.

الوحدة البنائية للنص

الفقرة الأولى:

«إن القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقًا عن مضمونها الفكري والعاطفي»[1]. يلاحظ على النص استخدام الجمل الممتدة، ذات الصلات بما قبلها؛ فكل فقرة وحدة بنائية قائمة بذاتها. «وتبقى الفواصل بين التراكيب الجملية وواوات العطف هي التي تحدد الأنماط والاتجاهات والسلوك في الوصية، ويُظلِّل الإطار العام للوصية منبعثًا عن نفس إنسانية ذات عطاء ثر، ومنبعًا يفيض دفقًا حيًا»[2].

(أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتها إليها، لكنت أغنى الناس):

استخدام الجمل الخبرية في هذه الفقرة لأنها تهدف إلى بناء معلوماتي، ونرى الترابط السياقي؛ فكل جملة تفضي إلى التي تليها؛ وكأنها شجرة ذات فروع. لذلك استخدمت أداة الشرط (لو): **(لو تركت)**، **(لو أن امرأة)** للربط والتعليق في النداء والإخبار والنتيجة.

وحرف الجر في: **(لذلك)**، **(منك)**، ثم الاستدراك: **(لكنها)**، والتخصيص:

---

(١) فقه العربية وخصائصها، د محمد المبارك، ص ٢٣١و٢٣٢.

(٢) جمهرة وصايا العرب: ١/ ٢٢و٢٣.

(للغافل، للعاقل)، (عن الزوج)، (لغنى أبويها)، والإضافة: (فضل أدب)، (غنى أبويها)، (شدة حاجتها)، (أغنى الناس)؛ الإضافة أشعرت بالنسب والانتهاء وكمال الوصفية: (فضل أدب).

والملاحظ في هذه الفقرة أن الجمل والتراكيب اسمية خبرية، عدا البداية الاستفتاحية: (أي بنية): نداء، وحتى الأفعال هي أفعال ذات دلالة وصفية تتسق والإخبار العام الذي بدأت به الأم، وتلاحق الجمل وتداخلها تدافع الموج المنساب الرقراق.

قال الزمخشري في الكشاف: ورود الخبر والمراد الأمر أو النهي أبلغ من صريح الأمر أو النهي؛ كأنه سورع فيه إلى الامتثال وأخبر عنه، وقال السيوطي في الإتقان: ومنها إقامة صيغة مقام أخرى، ومنها إطلاق الخبر على الطلب أمرًا أونهيًا مبالغة في الحث عليه؛ وكأنه وقع وأخبر عنه.

ورغم سهولة التراكيب والمفردات إلا أن دلالتها عميقة؛ تحمل رصيد التجربة ووهج العاطفة.

والجمل الطويلة متصلة، واستخدمت العطف الذي ربط كل جزئية في الفقرة بما قبلها وما بعدها.

«فالجمل هنا حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه يشاركه في الحكم ويدخل معه في معنى؛ مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلًا، أو

مفعولًا، أو مضافًا إليه، فيكون حقها العطف»[١].

استخدام الأم للمصادر: (وصية، فضل، أدب، تذكرة، معونة، غنى، شدة، حاجة) أرادت به ترسيخ ما ذهبت إليه، وحينما احتاج الأمر للتحريك استخدمت: (تذكرة) تفعلة فيها معنى السببية والدفع الإيجابي، وكذلك (معونة). والمصادر الباقية هنا أفادت المعنى بإطلاقه مجردًا، مما ساعد في رسم صورة أرادتها الأم.

وغرست الأم معانيَ مجردة في نفس ابنتها، وذلك من براعة استهلالها، واستخدام أفعل التفضيل: (أغنى الناس) ليتناسق مع استخدام المصادر التي ألقت ظلال الوصفية، فجاءت أفعل التفضيل لترسم اكتمال هذه الوصفية حال الاستغناء. «فوحدة الوظيفة والعمل تقابلها وحدة الشكل، فالألفاظ التي تصاغ على وزن واحد وبناء واحد تؤدي وظيفة واحدة؛ كالفاعلية أو المكانية أو السببية»[٢].

الفقرة الثانية:

(أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا).

هذه الفقرة خبرية تخبر عن حال جديد له سمات خاصة، فتناسقت التراكيب والمفردات مع الدلالات، فأنبأت الفقرة عن الانتقال، وجاء الوصف العام يدلل على هذا. وهنا إيقاع موسيقي يوحي بالرحيل؛ فجرس: (فارق،

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٤٣، تحقيق محمود شاكر.

(٢) فقه اللغة وخصائصها، ص ٢٧٩.

جو، خرجت، خلفت، عش، درجت، وكر، قرين) تدافق لفظي ذو نغم متـدرج، وأنفاس متهدجة يعلوها أسى الفراق، ولوعة الاشتياق. وانظر تلاحـق حـرف (التاء) في نهاية الأفعال؛ وهو حرف همس يتلاءم والمناسبة: (فارقـت، خرجـت، خلفت، درجت)؛ وكأن الأم تهمس بذلك في أذن ابنتها.

ثم: (تعرفيه، تألفيه)؛ والنهاية بالهاء قبلها ياء المخاطبة، وهذا المـد مـع الهـاء؛ كأنها تنهيدة تحمل زفرات فراق العزيزة الغالية.

وهذا الجرس له ظلاله التي تساعد في رسم لوحة الوداع، ونقلِنا إلى الحدث وكأننا أحد أفراده؛ نعايش أحاسيسه وآلامه، وينبض القلب وجدانًا وشجنًا.

وتبرق أول لمحة أمر في قولها: (فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا)؛ فعل الأمر ذو الاستعارة: (احملي).

و(عني) المتعلقة بالأمر المرتبطة بالرقم (عشر) المميز بـــ (خـصال) وجـواب الطلب: (تكن لك ذخرًا).

و(الفاء) في: (فاحملي) مقتضية لتسويغ تحميل الأم ابنتهـا هـذا الثقـل؛ ثقـل التبعة والأمانة. فكانت الفاء بعد قضاء الفعل وتمام حاجتها.

الفقرة الثالثة:

عبَّأتها الأم بالأمر والنهي، ولكن استخدامها للمصادر كان هو الأعمَّ الأغلـب. «يجوز عطف الجمل على اختلافها، بعض على بعض وإن لم تتحد في النوعية»[(١)].

جو هذه الفقرة العام هو إسداء النصيحة، ولكن الأم جنحت إلى اسـتخدام المصدر حال الأمر.

(١) البحر المحيط لأبي حيان: ٧/ ٦٨.

فالأمر الصريح: (اصحبيه - عاشريه) جاء في إحدى الروايات، أما الرواية الأبلغ جاءت بالمصدر

(الصحبة - القناعة - المعاشرة - حسن - سمع - الطاعة - التعهد - التفقد - الحسن - الطيب - الهدوء - منام - حرارة الجوع - تنغيص - النوم - الاحتفاظ - الإرعاء - التقدير - التدبير - سرًا - أمرًا - غدر - الفرح - ترح - الاكتئاب - إعظامًا - إكرامًا - موافقة - رضًا - هوى).

وذلك مثل قول الخنساء:

«ترتع ما رتعت، حتى إذا ادَّكرت، فإنما هي إقبال وإدبار».

«وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوَّزت في نفس الكلمة، وإنما تجوّزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرهما؛ كأنها قد تجسَّمت من الإقبال والإدبار»[1]. «ومن ثم فقد جعلتها حقيقة الإقبال والإدبار؛ وكأنها قد تمخَّضت إقبالًا وإدبارًا، وقد حسن وصفها بذلك للدلالة على تكرار هذا الفعل منها وغلبته عليها، وملازمتها له، وثبوتها عليه»[2]. وهذه (الصحبة) بمعنى مفاعلة؛ أي: (مصاحبة)، فالمصدر مجرَّد ولكن معناه فيه المشاركة والتفاعل.

والأم آثرت استخدام المصدر الذي يوحي بصدور الأمر وامتثال الابنة ومثول النتيجة التي استحضرتها الأم فذكرتها؛ فكأنها الخيار الوحيد أمام ابنتها،

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص ٣٠٠.

(٢) انظر نفس المرجع، ص ٣٠٠.

وليس لها إلا الامتثال، فهو خيار الفلاح والتوفيق. ومن معاني (الصحبة): الاصطحاب؛ وهو: بناء فيه المعالجة وممارسة ما يجلب حسن الصحبة فيستديمها. والطاعة في: (حسن السمع والطاعة) بمعنى الإطاعة.

أما المصادر التي بناؤها (تفعّل): (تعهّد، تفقد) ففيها معنى المطاوعة، فما عهد به إلى الابنة فهي تقوم به، وما أوكل إليها لترعاه فهي تتفقّده، وفيه أيضًا التدرج؛ تجرعت الماء، أي: شربته جرعة بعد جرعة.

وهنا: (تعهد وتفقد) على التوالي والمرحلية، وهذا إيذان بالممارسة والمعايشة، مما يولّد الطباع ويذهب وحشة الاستغراب، ومما يؤلف الجدّة ويغرس السعادة. وهذا ما ذهبت إليه الأم باستخدامها المصدر هنا، ومن تعوّد اعتاد، ومن تألّف ألف. فالبناء: (تفعل) من معانيه تكرار الفعل وملازمته للفاعل.

والمصدر: (التعهد، التفقد) فيه معنى الرعاية والعناية بالشيء، وبذل الوقت حتى ينال المراد؛ لذلك جاء التعقيب بالفاء في قولها: (**فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب الريح**). هنا الفاء بعد قضاء الفعل وتمام حاجتها منه، وجاءت الصياغة خبرية، وفي إحدى الروايات إنشائية بمعنى النهي، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ ...﴾ نهي، ﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ مصدر بمعنى الأمر، عطف ما معناه أمر على نهي، كما عطف في:

.... يقولون لا تهلك أسى وتجمل»[1].

ويمكن أن ينصب الفعل، ففي النهي يكون التعهد والتفقد متضمنًا معنى

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٣٤و٣٥.

الشرط؛ أي: إن تعهدت موقع عينه، وتفقدت موقع أنفه فلا تقعْ... ولا يشمْ. أوالنهي المباشر القائم بذاته، ويكون النهي مسلطًا على وقوع العين على قبيح أوالأنف إلا على أطيب الريح، وتأففًا عن ذكر بديل أطيب ريح لم تذكره الأم، بل ذكرت ما أرادت: امتثال ابنتها له، ونهتها عن النقيض البغيض.

وفي النصب يكون المصدر هنا نائبًا عن الأمر، والفاء للسببية، فيكون الفعل منصوبًا بحتى مضمرة، ويكون التعهد والتفقد سببًا، والفعلان وما يتعلق بهما غاية ومقصدًا. وفي الرفع يأتي الأمر على أصله؛ وكأن الفتاة تعهَّدت وتفقَّدت فجاء عدم وقوع العين على ما يؤذيه، أو الأنف على ما يقززه عملا طبيعيًا تلقائيًا. وفي الخبر إلف نظافة وحب أناقة، مما أوجد السرور وأبعد ما يستجلب النفور.

(منامه، ملهبة، مغضبة): مصادر ميمية؛ الأول للزمان أو المكان، والثاني سببية أو فاعلية، والثالث كذلك.

(الاحتفاظ، الإرعاء): مصادر معناها خصوصية الدلالة على الآلي المحكم، وعلى التفعل أو التعمل الذي يثور، وتظهر آثاره.

(التقدير، التدبير): البناء الصرفي: (تفعيل)، وفيه دلالة على إتقان التهيئة وحسن الاستفادة بالإمكانات المتاحة، والعمل على تطوير النفس والرقي بها نحو الأفضل.

(سرًّا، أمرًا): سيقا في النهي عن أن تتخلق الابنة بإفشاء سر واحد، وعدم المعصية ولو في أمر واحد؛ فالتنكير في سياق النهي مع الإفراد يفيد التقليل،

والنهي عن الوقوع فيما نهيت عنه ولو كان أمرًا واحدًا.

(إن أفشيت سره لم تأمني غدره)، (وإن عصيت أمره أوغرت صدره): وحدة الترابط بين المقدمات والنتائج توحي بمدى صلة النص؛ أجزائه بعضها ببعض. فالنص وحدة متكاملة، وإن تعدَّدتْ فقره، فوشيجة الدفق الشعوري الوجداني، والتسلسل المنطقي الواعي، ووضوح الغاية والهدف، ودقة البناء اللغوي المحكم؛ كل هذا ساق النص سياقة متدفقة متلاحمة.

الأمر المنضبط بشرطه: (اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحا): الأم تأمر ابنتها بإقامة ستار وحائل يحول بينها وبين إظهار الفرح وزوجها تكتنفه الأحزان؛ فكأنها تأمرها بإقامة سد منيع يحول وما نهتها عنه في هذا الحال.

(والاكتئاب عنده إن كان فرحًا): (عنده): في كنفه وكفالته؛ فمقتضى الحال رعاية حاله وعدم الحزن عنده. الشرط قيد، ولكن الاكتئاب مرفوض دائمًا، ولكن الأم قيَّدت النهي بالشرط لتشنيع صورة اكتئاب ابنتها وزوجها فرح؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

(الاكتئاب): افتعال؛ وهو بناء يرسم امرأة قد انتحت في بيتها جانبًا، وقد غشيتها ظلال الهموم، واكتنفتها أوهام الظنون، وعلتها كآبة الوجوم، وملأتها أساطير الخبل فهامت، ولكن هيامها ما أضيقه! وحزنها ما أثقله! ففاحت منها في الأرجاء غيوم العبوس، ونفثت سموم الوهن، وزرعت في الهزائم بذور الخنوع، فأنبتت ثمار الضياع.

(التقصير، التكدير): تفعيل؛ بناء يدل على تحريك وتفعيل مقتضياته. فالخصلة الأولى تقصير؛ أي إن فعلتها الابنة فهي فعّلتها، وجعلتها ماثلة كائنة. والثانية من التكدير، أوجدت موجبات التكدير بسوء صنيعها.

(إعظامًا، إكرامًا): البناء يوحي ببلوغ المنتهى في الالتزام بالفعل، والوصول إلى منتهي الوصفية. «جاء المصدر تمييزًا لتأكيد حالة الوصفية» التي أمرت بها الأم تحقيقًا لما طلبت وإبلاغًا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. والمصدر أبلغ من فعل الأمر الصريح.

(موافقة، مرافقة): مفاعلة؛ الإيجابية الفاعلة هي المحرك الأول وعامل النجاح الأمثل للحياة الزوجية؛ فالموافقة: الاتفاق التام، بل والبلوغ بالتفاهم درجة الإيماء لا التصريح؛ قلوب توادّت فأغنتها الإيماءة عن اللفظة، وأفئدة تعانقت فالأفهام توحدت. ولما كانت الموافقة تخللتها المرافقة كان لين عشرة ودوام صحبة.

(رضا): مصدر، يحوي أسباب الوفاق، وذابت بداخله الأهواء، ولم يبدُ جليًا إلا الإيثار، فلما ملك الزوج زمام الأمور قاد من أسلس القياد، فصلحت به زوجه، وسعد معه بنوه وأهله.

يلاحظ أيضًا أن (أفعل التفضيل) له دوره في بناء النص بناءً: (أشد) تكررت ثلاث مرات؛ منها مرتان في جانب الزوج، (أطول): وهذا التوظيف لأفعل التفضيل كان رائعًا؛ حيث أرادت الأم منه رسم كمال الوصفية: (أطيب ريح)، (أشد إعظاما)، (أشد إكراما)، (أشد موافقة)، (أطول مرافقة).

الأم غايتها الوصول بابنتها إلى المثالية، فإن قلَّت النسبة فهي في دائرة الواقع، فلئن تحققت فلقد أفلحت الأم وابنتها. أفلحت الأم إسداء للنصح والتوجيه، وأفلحت البنت امتثالًا واستجابة.

البديع ودوره في نداوة الوصية

(ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال): التفاف، ومثله قوله تعالى:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

(غافل - عاقل)	(خرجت - درجت)	(تعرفيه - تألفيه)
(مليك - وشيك)	(ذخرًا - ذكرًا)	(القناعة - الطاعة)
(تعهد موقع عينه- وتفقد موضع أنفه)	(تفشي له سرًّا - تعصي له أمرًا)	
(قبيح - ريح)	(ماله - عياله)	(المال - العيال)
(ملهبة - مغضبة)	(طعامه - منامه)	(سره - غدره - أمره)
(التقدير - التدبير)	(تقصير - تكدير)	(إعظامًا - إكرامًا)
(ترحا - فرحا)	(موافقة - مرافقة)	

مما سبق يتبين لنا أن الجناس الناقص، والطباق، والسجع؛ كل هذا نَظَمَ سلمًا موسيقيًا رائعًا، عمل على سهولة حفظ وتناقل هذه الوصية عبر الأجيال والزمان.

وهذا الإيقاع الموسيقى جعل الوصية أنشودة ذات أنغام هادئة حالمة، رغم جدِّيتها وحزمها؛ ففيها أيضًا عند الحزم إيقاع موسيقي يتناسب والمقام.

الخاتمة

وبعد هذه المعايشة مع الوصية تاريخًا وتحليلًا ندرك أننا بحاجة ماسَّة لاستخلاص العبر والنتائج من مثل هذه الوصايا:

* فالوصية دارت في دائرة الحفاظ على العش الجديد، والانطلاق به نحو السعادة.

* وهي وصية اجتماعية من الدرجة الأولى، ولكنها تحمل أبعادًا إنسانية وسياسية، وإن كان دور المرأة في هذا الوقت محدودًا في الاتجاه السياسي، فركَّزت الأم على المحاور المركزية للعائلة فقط، ولم تخرج عن نطاق الزوج والأولاد والحشم.

وكان دور المرأة السياسي آنذاك محدودًا نظرًا لطبيعة المجتمع والحياة في هذه الحقبة ، على الرغم من مشاركتها في إبداء الرأي وبعض المشاورات في المسائل السياسية الهامة، ولم يكن ذلك تقليلًا لدور المرأة، ولكنها طبيعة الظروف السياسية آنذاك.

فالدور السياسي كان لا يأخذ شكل المجالس النيابية والمنتديات الدبلوماسية، فلقد كانت المهارة في البعد السياسي ليست كلامية مثلما تقوم عليه السياسة الدولية الآن، بل كانت الكلمة الأولى والأخيرة للسيف والرمح، إلا ما سجَّله التاريخ من موقف هرم بن سنان في حرب (داحس والغبراء)؛ حيث كان له زعامة في استتباب الأمن والسلام بين العرب في هذا الوقت.

فالمرأة كانت تؤدي دورًا سياسيًا في العموم، ولكنه كان غير مباشر؛ فكثير من النزاعات والحروب كانت انطلاقتها تبدأ بامرأة. إما دفاعًا عن الشرف، وإما استردادًا لمن سبيت، وكانت المرأة تشارك في الحروب؛ تُحرِّض الرجال وتحثهم على الزود عن الديار والأعراض؛ فلقد كان العربي يعتبر المرأة عورته التي يجب سترها والحفاظ عليها، وإبعادها عما يشهر بها أو يذيع لها سرًّا.

* وهذه الوصية تميَّزت بوضوح المناسبة والغاية فخُلِّدَتْ واستمر عملها التنموي في بناء الوعي الذاتي لدى الأمة، والوصية بمثابة حلقة في سلسلة التوارث الفكري الإنساني.

* وهذه الوصية أبرزت أهمية الدراسة والتحليل للنصوص التراثية، والوقوف أمامها مليًّا، والإكثار من الترداد بين مفرداتها ودلالتها الاجتماعية والسياسية واللغوية العميقة التي تكشف عن معانٍ وخصائص نحن أحوج ما نكون إليها دراسة، فتوقظ أصيل الملكات، وتزيل ركام الغثائية التي تصنع حتى تهال على أمتنا، فتزيدها وهنًا على وهنها المخطط له عبر القرون.

فنحن بعودتنا الراشدة إلى أصولنا التراثية نضع حجرًا أمام سيل تزييف الحقائق، وغبش الحداثة المقيتة التي تريد أن تقتلع كل ما يمت لهذه الأمة بصلة، ووضع بذور خبيثة ما لها من قرار.

«ما أعظم هذه الوصية! فإن المؤتمرات النسائية لو اجتمعت وبعضها لبعض ظهير ومعين لما استطاعت أن تتحف عالم المرأة بأجمل وأطهر وأحسن من هذه

الوصية الذهبية؛ فكم هو جدير بالمرأة العربية أن تجعلها دستورها ومنهاجها، فتسير على حسبها، وتتبع منهجها لتكون سعيدة وموفقة»[١].

* إن الرجوع إلى العلم في مظانه لَيَكْشِفُ للنفس حقائق مذهلة، ويوقفها دهشة أمام منهجية تفكير أسلافنا، على الرغم من عدم وجود مدارس الفكر التنظيري آنذاك، والذي كثيرًا ما يؤصل الترهات والخواء كما يتشدق المتعالمون الآن، ولا همَّ لهم إلا حمل معاول الهدم لكل ما لا يفهمونه من تراثنا، فملئوا العلوم غثائية وهامشية. فآن لنا أن ننفض غبار النوم عنا، ونفك قيودًا كبَّلَنا بها قومٌ من بني جلدتنا؛ تقلَّدوا أمورنا على حين غفلة من اختيارنا، أو قهرًا لنفوس طال وأدُ حقوقها.

وبعد، فما أثقلها من مهمات، وما أعظمها من تبعات يراها الناس خيالًا، ويراها المؤمن حقيقة وواقعًا. فلنا في الله غاية الأمل، ولن نيأس أبدًا؛ ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) روائع من الأدب العربي، أحمد نصيب المحاميد، ص ٢٨.

فهرس المصادر والمراجع

١- **الاتصال الجماهيري**، صالح خليل أبو الإصبع، دار الشروق، الأردن- ١٩٩٩.

٢- **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي**، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة.

٣- **أدب ما قبل الإسلام دراسة وصفية تحليلية**، محمد عثمان علي جامعة الفاتح، دار الأوزاعي – بيروت- ٨٦.

٤- **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، بطرس البستاني، دار الجيل – بيروت- ١٩٨٩.

٥- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر**، تحقيق/علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت- ٩٢.

٦- **أسرار العربية للأنباري**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت- ٩٧.

٧- **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨- **الأصمعيات**، تحقيق د / عمر فاروق الطباع، دار الأرقم – بيروت.

٩- **أصول علم النفس وتطبيقاته**، د. فاخر عاقل، دار العلم للملايين بيروت- ٧٣.

١٠- **الإعجاز الصرفي في القرآن**، د. عبد الحميد هنداوي، دار العلوم القاهرة ط١.

١١- **إعجاز القرآن**، لأبي بكر الباقلاني، دار إحياء العلوم – بيروت –٩٠.

١٢- **الأعلام**، للزركلي، ط٢ -١٩٥٤.

١٣- **البحر المحيط في التفسير**، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر – بيروت- ٩٢.

١٤- **البيان والتبيين**، للجاحظ، بيروت.

١٥- **تاريخ آداب العرب**، الرافعي، دار الكتاب العربي - بيروت- ٢٠٠٣.

١٦- **تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، دار الكتب العلمية - بيروت - ٨٨.

١٧- **تاريخ الحضارات العام**، موسوعة بإشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات بيروت - باريس- ٩٨.

١٨- **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**، د. صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات، ط ١ بيروت- ٢٠٠٠.

١٩- **تاريخ دمشق** لابن منظور، تحقيق / أحمد راتب حموش - محمد ناجي العمر، دار الفكر - دمشق- ٨٥.

٢٠- **تجديد الوعي**، د. عبد الكريم بكار، دار القلم - دمشق- ٢٠٠٠.

٢١- **تحمل المسئولية الآن**، د. وليام كناوس، مكتبة جرير - جدة ط١ - ٢٠٠٢.

٢٢- تراجم **أعلام النساء**، إعداد لجنة مؤسسة الرسالة، إشراف: رضوان دعبول.

٢٣- تفسير **أبي السعود**، مؤسسة التاريخ العربي/ دار إحياء التراث العربي- بيروت- ٩٠.

٢٤- **تفسير البغوي**، تحقيق/ محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة-الرياض-٩٣.

٢٥- **التليفزيون الإسلامي ودوره في التنمية**، د. عادل الصيرفي - يحيى بسيوني مصطفى، دار عالم الكتب- ٨٥.

٢٦- **جمهرة الأمثال**، لأبي هلال العسكري، دار الجيل - بيروت- ٨٨.

٢٧- **جمهرة اللغة** لابن دريد، تحقيق د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت- ٨٦.

٢٨- **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، أحمد زكي صفوت، دار الكتب العلمية بيروت.

٢٩- **جمهرة وصايا العرب**، محمد نايف الدليمي، دار النضال - بيروت- ٩١.

٣٠- **جواهر الأدب**، أحمد إبراهيم مصطفى الهاشمي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت ٩٩.

٣١- **حضارة العرب**، جوستاف لوبون، ترجمة عادل الزعيتر، مطبعة عيسى الحلبي- ٦٩.

٣٢- **الحيوان**، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة مصطفى الحلبي.

٣٣- **الخصائص لابن جني**، تحقيق/ عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٣٤- **خلاصة تاريخ العرب**، سيديو، دار الآثار بيروت- ٨٠.

٣٥- **دلائل الإعجاز للجرجاني**، تحقيق / محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة وجدة- ٩٢.

٣٦- **ديوان الحماسة لأبي تمام**، برواية أبي منصور الجواليقي - تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح، الهيئة العامة لقصور الثقافة - ١٩٩٦.

٣٧- **ديوان المعاني لأبي هلال العسكري**، شرح / أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية بيروت- ٩٤.

٣٨- **روائع من الأدب العربي**، أحمد نصيب المحاميد.

٣٩- **روائع من الأدب العربي**، د. صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، بيروت.

٤٠- **روح المعاني**، للألوسي، دار الكتب - بيروت.

٤١- **سر صناعة الإعراب** لابن جني، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم – دمشق- ٩٣.

٤٢- **الصاحبي**، لأحمد بن فارس، مكتبة المعارف – بيروت.

٤٣- **الصناعتين**، لأبي هلال العسكري، المكتبة العصرية – بيروت – ٩٨.

٤٤- **طبقات الشعراء**، تحقيق / محمد سويد، دار إحياء العلوم- بيروت-٩٨.

٤٥- **الطريق من هنا**، محمد الغزالي، دار القلم دمشق ٨٨.

٤٦- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ابن خلدون، دار الكتب العلمية بيروت-٩٢.

٤٧- **العصر الجاهلي**، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٨ –٧٧.

٤٨- **عصرنا والعيش في زمانه الصعب**، د. عبد الكريم بكار ، دار القلم – دمشق- ٢٠٠٠.

٤٩- **العقد الفريد** لابن عبد ربه، شرح إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٠- **علم الأعلام – الوثائق والمحفوظات**، د. عبد الله أنيس طباع، شركة العالمية للكتاب لبنان- ٨٦.

٥١- **علم المعنى (الدلالة)**، د. محمد علي الخولي، دار الفلاح، الأردن- ٢٠٠١.

٥٢- **علم النفس التربوي**، د. عبد المجيد نشواتي، جامعة اليرموك، الأردن – الرسالة- ٩٨.

٥٣- **العمدة**، لابن رشيق القيرواني، المكتبة العصرية – بيروت- ٢٠٠١.

٥٤- **عيون الأخبار**، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتاب العربي – بيروت- ٩٩.

٥٥- **فجر الإسلام**، أحمد أمين، دار الكتاب العربي – بيروت- ٧٥.

٥٦- **الفروق في اللغة**، لأبي هلال العسكري، تحقيق جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة - بيروت-٢٠٠٠.

٥٧- **فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية والإسلام**، عبد القادر فياض حرفوش، دار البشائر - دمشق- ٩٤.

٥٨- **فقه اللغة وخصائص العربية دراسة تحليلية**، د. محمد المبارك، دار الفكر بيروت- ٨١.

٥٩- **فن الإلقاء الرائع**، د. طارق السويدان، شركة الإبداع الفكري - الكويت- ٢٠٠٣.

٦٠- **فنون الحوار والإقناع**، محمد راشد ديماس، دار ابن حزم - الرياض.

٦١- **القاموس المحيط**، للفيروزابادي، الرسالة، بيروت- ٩٣.

٦٢- **الكامل**، لابن الأثير، دار صادر، بيروت.

٦٣- **كتاب العين** للخليل بن أحمد، تحقيق د / مهدي المخزومي، د / إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت- ٨٨.

٦٤- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، دار الفكر.

٦٥- **لسان العرب**، لابن منظور، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي- ٩٣.

٦٦- **مجلة جذور التراث** (مقال فن الرثاء في الشعر العربي القديم)، د. حسن فتح الباب، النادي الثقافي بجدة- ديسمبر- ٢٠٠٤.

٦٧- **مختارات الأصمعيات**، شرح د / عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت.

٦٨- مختارات من مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد علي قاسم، مكتبة المعارف، بيروت- ٨٦.

٦٩- مروج الذهب للمسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت- ٨٨.

٧٠- مشكلات الثقافة لمالك بن نبي، ترجمة عمر مسقاوي، بيروت، ندوة مالك ابن نبي.

٧١- المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، دار القلم، بيروت.

٧٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

٧٣- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، الرسالة، بيروت- ٩١.

٧٤- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق / عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت- ٩١.

٧٥- مغني اللبيب، لابن هشام، دار الفكر، بيروت- ٩٢.

٧٦- منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية.

٧٧- موسوعة حياة الصحابيات، محمد سعيد مبيض، مكتبة دار الفتح، الدوحة- ٩٦.

٧٨- وحي القلم، الرافعي، دار الكتاب العربي - بيروت - ٢٠٠٣.

٧٩- الوصايا في الأدب العربي، د. سهام فريحة، مكتبة المعلا - الكويت ط ١ - ٨٨.

٨٠- ومضات الخاطر، د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية- ٨٨.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقديم	٧
المقدمة	١١
نص الوصية	١٩
التمهيد	٢١
تعريف الوصية	٢١
لماذا اختصت الأم ابنتها بالوصية؟	٢٤
أهمية الوصية	٢٧
توثيق الوصية	٣٠

الباب الأول: البعد التاريخي والسياسي للوصية

الفصل الأول: عائلة الزوج:	٣٩
تأسيس ملك الحارث	٤٢
تبع اليماني وخؤولته للحارث بن عمرو	٤٣
اتساع ملك الحارث	٤٣
الحارث وعلاقته بقباذ ملك الفرس	٤٣
شموخ وأنفة	٤٥
نهاية ملك الحارث	٤٥
يوم الخزاز (أفول نجم كندة)	٤٦

الفصل الثاني :العروس وأهلها ٤٩

المبحث الأول : الأب: ٥٣

(عوف بن محلم ،وثيقة تاريخية) ٥٦

إثارة الرأي العام ٥٣

موقعة ذي قار ودور بني شيبان فيها ٥٤

المبحث الثاني: الأم: ٥٨

حسن الإختيار ٥٩

وقفة تحليلية ٦٠

شمائل تستوجب المحبة ....

مهمة استكشافية ٦٠

المبحث الثالث : دقة اختيار الزوجة .. علم: ٦٣

جمال يسمو به عقل ٦٣

عقل لبيب يدفع لساناً ذا فصاحة ٦٤

رمزية ذات دلالة ٦٦

لقطة حضارية ٦٧

مهرها وتجهيزها ٦٧

لباقة الحارث مع عوف بن محلم ٦٨

سن العروس من دلالات الألفاظ ٧٠

الباب الثاني : مدخل إلى الوصية

تمهيد: ٧٥

الفصل الأول : الإبداع الفكري في الوصية: ٧٩

المبحث الأول : بناء الوعي ٨١

المبحث الثاني : معرفة حدود الذات ٨٦

المبحث الثالث الإقناع بالنقل الفعال للمعلومات ٨٨

المبحث الرابع : بناء منهجية في التفكير ٩١

المبحث الخامس: الواقعية ٩٢

المبحث السادس : الاستدعاء الانطلاقي ٩٤

الفصل الثاني: الأم تهيء ابنتها نفسيًا ٩٧

الباب الثالث: تفاصيل الوصية وتحليلها

الفصل الأول تحليل الوصية: ١٠٥

مكانة العقل في الوصية ١١٠

تهيئة ما قبل الرحيل ١١٥

دلالة الألفاظ ودقة المعاني ١٢٠

دلالة العش والمرحلة المقبلة ١٢١

دلالة الوكر وجدية المستقبل ١٢٣

دستور الامتثال والطاعة ١٢٨

دلالات الموقف ١٣٠

تماثل الاستحقاق ١٣٢

الفصل الثاني : الوصايا العشر ١٣٥
(١) - دلالة الصحبة بالقناعة ١٤٦
(٢) - دلالة حسن السمع والطاعة ١٤٨
(٣)،(٤)- التعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه ١٥٣
(٥)،(٦)- التعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه ١٦٤
(٧)،(٨)- الاحتفاظ بيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ١٦٧
ومضة مقارنة ١٧٤
تعبئة الأم وصيتها معالم إدارية رائعة ١٧٥
(٩)، (١٠)- ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا ١٧٧
عواقب إفشاء السر والعصيان ١٧٩
حاشية الوصية ١٨٣
مراعاة نفسية الزوج ١٨٣
من نقائض الوصايا ٢٠١
الوحدة البنائية للنص ٢٠٣
البديع و دوره في نداوة الوصية ٢١٣
الخاتمة ٢١٥
المراجع والمصادر ٢١٩
فهرس الموضوعات ٢٢٥

هذا الكتاب

* العلاقة الزوجية هي اللبنة الأولى في بناء الأمم؛ فترتقي الأمم وتتماسك بقدر تماسك العلاقات الزوجية فيها ورقيها، كما يصيبها التفكك والانهيار إذا تفككت العلاقات الزوجية فيها وانهارت.

* لهذا عظمت الحاجة إلى إرساء دستور العلاقة الزوجية الذي يحفظ لها تماسكها ويحقق نموها ورقيها؛ وهذا ما حققه ديننا الحنيف - كتابًا وسنة - أحسن تحقيق، وكفله أيما كفالة. كما يقوم الأدب البنَّاء بدور فاعل في إرساء هذا المفهوم وتحقيقه.

* ومن جميل ما قدَّمه أدب العصر الجاهلي في هذا المقام: وصية أمامة بنت الحارث لابنتها حين زفافها؛ وهي وصية أم حنون حوت في مضمونها عشر وصايا تفصيلية كفيلة بتحقيق الهناء والسعادة للحياة الزوجية والسير بها نحو المجد والعلا.

* وقد حُفَّتْ الوصية بمقدمات وحواشي تزيدها قوة ورونقًا وبهاء، كما تميَّزت بمزايا أخرى عديدة؛ من أهمها:

- أن كلًّا من الزوجين يحتل مكانة عالية سامقة؛ فالزوج هو أحد ملوك كندة، والزوجة هي بنت عوف بن محلم الشيباني الذي ضُرِب المثل بعزِّه وسؤدده فقيل: (لا حُرَّ بوادي عوف).
- امتاز نص الوصية بدرجة عالية من وحدة البناء كما وضح ذلك المؤلف.
- المحسنات البديعية كان لها أكبر الأثر في نداوة الوصية وقوة تأثيرها.

* وقد تناول المؤلف - جزاه الله خيرًا - كل هذا بالشرح والتفصيل:

- فبدأ بالبعد التاريخي للوصية مبينًا مكانة كلٍّ من الزوجين، وكيفية اختيار الزوجة.
- وعرَّج على تحليل الوصية وبيان ما فيها من دلالات تربوية.
- كما تناول الوصايا العشر بالشرح المُفصَّل، مع الربط بين حقائق الوصية وقيمها وبين ما جاء به ديننا الحنيف.

* نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا السفر كاتبه وقارئه وكل من ساهم في إخراجه، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الناشر

دار التدمرية
الرياض ٠١٤٩٢٤٧٠٦ - ٠١٤٩٢٥١٩٢
بريدة ٠٦٣٦٢٦٣٦٦
SR 16
1 1
32336

ردمك: ٠ - ٤٨ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨